كيف ترتكب جريمتك الأولى
و قصص أخرى
ل مرتينا سيف
حكايات لقتل الوقت

مقدمة

الوقت الذي تنتظر فيه دورك في عيادة أحد الأطباء، أو الوقت الذي تقضيه أثناء سفرك لساعات طويلة في القطار أو ساعات الانتظار في المطار، أو لتجنب تمضية وقت سخيف برفقة أحد تسأم حديثه أو الوقت الذي تجلس به وحيداً ويمضي بثقل، من أجل هذا كله، كتبت تلك الحكايات، فهي حكايات هدفها الوحيد هو قتل الوقت قبل أن يقلنا الملل.

إهداء

إلى الكتابة نفسها

إن كتاباتي في مجملها هي

محاولة للتأقلم.. محاولة للنجاة من الألم

إهداء إلى قلبي الذي أجهدته معي جداً

... و إلى الله الذي وهبني خيالي كي أخلق عوالم تؤنسني، و أعيش حيوات كُثر.. لا حياة واحدة

... وإلى أصدقائي الذين كانوا ترمومتر لما أكتب (دولاجي مجدي – علياء سعد الدين – لوسيان هاني – مارتينا ثروت – شيماء إسماعيل – مريم رأفت - وكل مَن قرأ لي حرفاً)

بيروت، حقبة الستينات.

في إحدى مدارس الراهبات الداخلية للبنات، ذات يوم، أتى القس في زيارة إلى المدرسة.

قدّمته الراهبة للفتيات قائلة إن القس جاء وبحوزته مفاجأة لهن.

اجتمعت الفتيات في فناء المدرسة، وهن يتهامسن سرًّا:

ترى، ماذا أحضر القس شربل لهن؟

كان من بين فتيات المدرسة: سارة، وتريز، وشانتيل.

جلسن في الصفوف، منتظرات ما سوف يقدّمه القس لهن،

حتى أخرج جهازًا بدا غريبًا عليهن.

ابتسم الأب شربل ابتسامته المعهودة، وقال وهو ينظر نحو الفتيات:

ـشو برأيكن بيطلع هاد؟

نظرت الفتيات إلى بعضهن في دهشة، وقالت إحداهن

- **امم هيدا راديو**

ثم قاطعها أخرى قائلة

- **لا هيدا شكله الاختراع الجديد المسمى تلفزيون يلي منسمع عنه**

صمت الأب شربل قليلًا وهو يراقب ردود أفعالهن، ثم قال:

إنه جهاز قريب من جهاز التلفاز، لكن شاشته لا تعرض أفلامًا أو مسلسلات، بل تعرض شيئًا أكثر أهمية... تُرى، ماذا تعرض؟

نظرت الفتيات كل واحدة إلى زميلتها في حيرة: تُرى، ماذا تعرض هذه الشاشة؟

ابتسم الأب شربل أخيرًا بعدما رأى مدى تشوّق الفتيات لمعرفة ذلك، ثم قال بصوت هادئ ومتّزن: إنها تعرض الخيال.

ارتسمت علامات الدهشة وعدم الفهم على وجوه الفتيات، فأكمل:

ـأي.. بيعرض شو بتفكر وشو بتتخيل إذا ضل الواحد أكتر من دقيقة

صدرت همهمة من الفتيات، أسكتتها الراهبة حتى يُكمل الأب شربل كلامه: إن هذا الجهاز مهمّته مساعدتكن على ألا تفكّرن في أي أمر شرير أو مخجل.

سنقوم بتوزيع جهاز يُلصق في قلادة ترتديها كل واحدة منكن،

ومن ثم نلتقي الأسبوع القادم، وسنعرض ما سجّله الجهاز أمامنا جميعًا.

صدرت عن الفتيات همهمة، لكن هذه المرة بصوت أعلى.

حاولت الراهبة إسكاتهن حتى يستطيع القس أن يُكمل حديثه.

فقال أخيرًا: لا تَجزَعْنَ يا بناتي، لأن هناك فرصة مدّتها دقيقة كاملة؛

إن فكّرتِ في شيء سيئ أو مخجل، اهربي من الفكرة بممارسة التأمل أو أي شيء آخر، قبل أن يسجّل الجهاز الفكرة.

والآن، تقدّمن إليّ يا بناتي الرقيقات حتى أعلّق لَكُنّ القلادة.

وغير مسموح لأي فتاة أن تنزع هذه القلادة من رقبتها، حتى في أوقات النوم.

ولنا لقاءٌ آخر... الجمعة القادمة.

****

عقب مغادرة الأب شربل، وعند حلول المساء، تجمعت الفتيات سارة وتريز وشانتيل في غرفتهن، فقد كانت أسِرّتهن بجوار بعضها.

قالت شانتيل:

– شو هاد، يا الله! حتى الخيال راح نخاف نتخيّله!

سارة:

– كيف عم تحكي هيك؟ مانِك خايفة يعرفوا إنك قلتي هالحكي الجمعة الجايّة؟

شانتيل:

– بس هاد حكي، مو خيال!

تريز:

– وشو الفرق؟

شانتيل:

– بعتقد الخيال هو صور، لأنه بيتعرَض على الشاشة. بس كيف بدهن يعرَضوا الكلام؟

تريز:

– لازم وقت اللي بتفكّري يتحوّل الحكي لصور بعقلك، وهيك بتتعرض على الشاشة.

شانتيل:

– وأنا كمان هيك بعتقد.

سارة:

– بنات، أنا كتير خايفة...

تريز:

– وليش لتخافي؟ شو راح نتخيّل يعني؟ بس فكروا، إحنا راح نعرف بشو عم يفكروا باقي البنات!

سارة:

– إنتِ هاد كل همك!

شانتيل:

– بعتقد لازم ننام، ما منعرف هالسلسلة شو عم تسجّللنا. منيح إنها ما بتسجّل الأحلام كمان!

سارة:

– إي، خلينا ننام أحسن...

تريز:

– تصبحوا على خير يا بنات

****

في الأيام التالية، ظهرت التغييرات على الفتيات في المدرسة؛ إذ إن معظمهن أصبحن يعملن طيلة اليوم، ويحاولن شغل أوقات فراغهن بالقراءة أو الصلاة.

وقد سعدت المُدرِّسات كثيرًا بهذه التغييرات.

وأثناء ذلك، لاحظت سارة وشانتيل تغييرات في تريز، صديقتهن:

سارة:

– شو في يا تريز؟

(صمتت تريز ولم تجب)

شانتيل:

– احكي بقى وخلّصينا!

تريز (بتردد):

– أنا... اتخيّلت شغلة.

سارة:

– شو اتخيّلتي؟ احكي!

تريز:

– وقت كنت عم جرّب تيابي الجديدة، شفت رشا عم تطلع فيّ نظرة ما حبيتها. كأنها عم تتريق على وزني، إنه وزني زايد وهيك تيابي... ما قدرت أمنع حالي من إني اتخيّل إني عم سبّها، وضليت أضربها لحتى طحتها بالأرض...

(سألتها سارة وشانتيل بلهفة)

سارة:

– واتخيّلتي أكتر من دقيقة؟

شانتيل:

– شو كانت المسبّة؟ شي كتير قبيح؟

تريز:

– ما بعرف قديش ظلّيت اتخيّل، بس طول اليوم كنت أرجع أتخيّل هالمشهد، وأحاول أغيّر الفكرة، بس كانت ترجعلي.

سارة (بقلق):

– شو بدنا نعمل هلأ؟

شانتيل (بحماسة):

– أنا عندي فكرة! شو رأيكن نسرق الجهاز يلي بيستقبل خيالاتنا؟

أكيد موجود بمكتب الأم دومينيك، ومنقدر وقتها نمحي اللي بدنا ياه!

سارة:

– لأ، أنا بخاف أسرق... بلكي حدا شافنا؟! شو راح نعمل ساعتها؟

شانتيل:

– وقتها بنقول حيالله شي، مثلاً: كنا عم ندوّر على الأم دومينيك، بدنا ياها بشغلة... وهيك.

سارة:

– أنا لساتني خايفة...

شانتيل:

– إي خلص، خليكي إنتِ بعيدة.

أنا وتريز منروح نسرق الجهاز.

سارة (بريبة):

– وإنتِ قاتلة حالك هيك كرمال تريز؟ ولا في شي تاني؟

(ارتبكت شانتيل قليلاً، ثم قالت بصوت منخفض)

شانتيل:

– بنات... أنا كمان اتخيّلت شي...شي كتير بشع...

(سكتت لحظة، ثم أكملت)

– اتخيّلت إني عم برقص...إنتوا بتعرفوا قديش بحب الرقص...بس اتخيّلت إني لابسة بدلة رقص وعم برقص شرقي...

(ذهلت الفتاتان من كلام شانتيل، ويبدو أن لا أحد استطاع أن يسيطر على خياله)

ثم نظرت شانتيل إلى سارة وقالت:

شانتيل:

– شو سارة؟ إنتِ الوحيدة بيناتنا يلي ما اتخيّلتي شي؟

لهيك ما بدك تسرقي الجهاز؟

(ارتبكت سارة وبدأت تنظر حولها)

سارة:

– يعني... اتخيّلت قصص عادية...

وأصلاً ما بعتقد إني ظلّيت فيها أكتر من دقيقة..

(نظرت شانتيل وتريز لها بريبة.

ثم قالت شانتيل باستهزاء)

شانتيل:

– بالله... شو؟

(ثم قالت بحزم)

– أنا هلأ راح أحاول أتسلل على مكتب الأم دومينيك.

الساعة عشرة، غالبًا هي بتكون عم تمرّ على الغرف...

يمكن نقدر نتسلل بهالوقت ونمحي اللي بدنا ياه من الجهاز.

مين منكن بتجي معي؟

وافقت تريز أن تأتي كي تمحو ما تخيلته، وبعد تفكيرٍ لثوانٍ، وافقت أيضًا سارة أن تنضم إليهن.

ولحسن الحظ، كان مكتب الأم دومينيك مفتوحًا ولم تكن بداخله.

كانت البنات يعلمن أن هذه الفرصة لن تستمر طويلًا، فالأم دومينيك قد تعود في أي لحظة.

ظلت كل واحدة تنظر في أرجاء الغرفة، تبحث عن مكان الجهاز.

تريز:

– أكيد ما راح يتركوا الجهاز بحيّ الله مكان... لازم يكون مخبّى بمكان آمن!

سارة (تشير نحو الأعلى)**:**

– لك شوفوا فوق الطاولة... هو هنيك! أنا شايفة صور!

(نظرت الفتيات الثلاثة إلى الأعلى، وبالفعل رأين الجهاز في الأعلى، مثبت ليسجل.)

قمن بوضع بعض الكراسي فوق الطاولة وساعدن بعضهن بالصعود، حتى استطاعت شانتيل الوصول إليه، فأنزلته بحذر وقالت:

شانتيل:

– لكوا، بصّوا! هيدا الجهاز عم يسجّل... بس كيف بدنا نستخدمه؟

(شهقت سارة فجأة، وهي تنظر إلى الشاشة)

سارة:

– لكوا!! شوفوا نيرمين شو عم تتخيّل! عم تبوس ولد!! يا فضيحتها الجمعة الجاي!

تريز (مندهشة):

– يا ترى مين هالولد؟!

كنت مفكرة اللي اتخيلته أنا هو أبشع شي... بس طلع في أبشع!

شانتيل (بصوت جاد):

– بنات، ما تنسوا ليش جينا لهون... بدنا نمحي اللي اتخيّلناه قبل ما توصل الأم دومينيك!

(حاولت الفتيات العبث بالجهاز، الذي كان أشبه بجهاز تلفاز قديم مع أزرار كثيرة ومربكة. ولكن عبثًا حاولن، فلم تتمكن أيٌّ منهن من معرفة كيف تُمحى التسجيلات.)

اضطررن بعدها لإعادة الجهاز إلى مكانه، وعُدن إلى غرفتهن خائبات الأمل.

وفي تلك الليلة، لم تستطع أيٌّ منهن النوم، فقد ظللن يتساءلن:

هل استغرق خيال كل واحدة منهن أكثر من دقيقة؟

هل سيتم عرض صورهن أمام المدرسة كلها؟

هل ستنكشف أسرارهن الصغيرة؟

وأتى يوم الجمعة المنتظر.

دخل الأب شربل بصحبة الأم دومينيك التي تحمل الجهاز، وعلى وجهه ابتسامة هادئة، لكن البنات حسبنها ابتسامة شماتة.

جلست كل فتاة أمام الأخرى تنظر بقلق وريبة، ينتظرن المصير.

بدأت الأم دومينيك الحديث مع الأب شربل، تخبره بأنها لاحظت تغييرات سلوكية كثيرة في الفتيات، فقد أصبحن أكثر انضباطًا واجتهادًا، ويتجنبن أوقات الفراغ.

ابتسم الأب شربل بفخر وقال: لن أُعلّق أنا ولا الأم دومينيك على ما سنشاهده... دعوا كل واحدة ترى نفسها فقط.

ثم ضغط زر التشغيل.

بدأت الشاشة تُعرض صورًا مشوشة وغير مكتملة، مما يدل على أن صاحباتها لم يستغرقن في الخيال لأكثر من دقيقة، لكنها سرعان ما بدأت تعرض صورًا أوضح.

فلسوء حظ شانتيل، ظهرت على الشاشة وهي ترتدي بدلة رقص شرقي وتؤدي رقصة على مسرح كبير!

(كتمت الفتيات ضحكاتهن، وأحست شانتيل بالخجل من نفسها، ومن نظرات الأب شربل والأم دومينيك الصامتة.)

ثم عرض الجهاز صورًا أخرى:

تخيّلات "نايا" بالسرقة، وصراعها مع هذه الرغبة.

بعض الفتيات تخيّلن مواقف مضحكة أو ساخرة ضد معلماتهن. لكن لحسن حظ سارة وتريز، لم يُعرض لهما شيء.

اكتفى الأب شربل والأم دومينيك بنظرات طويلة مليئة بالخزي في عيون الطالبات.

ثم انصرفا على وعد بالعودة في الجمعة القادمة.

****

حين حلّ المساء، تجمعت سارة وتريز بجانب صديقتهما شانتيل التي كانت تبكي بشدة، خاصة بعد أن انصرف الأب شربل وجاءت كل فتاة في المدرسة تتهكم عليها، حتى المعلمات نظرن لها بنظرات ساخرة.

نظرت شانتيل إلى صديقتيها وقالت بتحدٍّ واضح:

_ أنا ما فيّني أتحمل مسخرة البنات كمان جمعة.. هاد الجهاز ما لازم يضل بالمدرسة.

سارة**: طيب، شو بدك نعمل يعني؟ ما نحنا حاولنا نمحي الصور وما عرفنا.**

شانتيل: فينا نسرقه، نكسره.. أي شي، أي شي.

تريز: **إنتِ هلأ غضبانة، برأيي بلا ما تحكي كتير قبل ما الجهاز يسجّل صورتك وإنتِ عم تكسريه.**

شانتيل: **إنتوا التنتين مانكن حاسين فيي، كرمال الجهاز ما سجّل أي شي عنكن!**

سارة: **مين قالك مو حاسين فيكي؟ نحنا الاتنتين مرعوبين من اللي صار اليوم. مو بس نحنا، كل البنات ارتعدوا من اللي صار.**

جففت شانتيل دموعها ثم قالت:

_ لَكِن، إنتوا شو بدكن هلأ؟

ابتسمت سارة وقالت لهن:

_ أنا معي الحل، بس ما فيني قوله هلأ. بكرا بعد الدوام بنتقابل بالجنينة، عند الشجرة الكبيرة، وبقلكن.

نظرت لها تريز وشانتيل بترقّب، ثم تقابلتا في الغد عند الشجرة الكبيرة، كما قالت لهن سارة.

تجمعت تريز وشانتيل، وتأخرت سارة قليلاً حتى أتت مبتسمة الوجه. سألتها شانتيل عن سر ابتسامتها العريضة، فقالت سارة:

_ بنات، بتعرفوا ليش الجهاز عرض صور مشوشة لجميع البنات ما عدا أنا؟ مشان هاد، شوفوا.

نظرت تريز وشانتيل لها، حيث أخرجت سارة من حقيبتها القلادة الخاصة بالجهاز.

قالت شانتيل: **شو يعني؟ ما فهمت.**

قالت سارة: **هاي مش السلسلة يلي عطتني ياها الأم دومينيك. هاي وحدة طبق الأصل منها. إنتوا بتعرفوا إني بحب أعمل شغل بالإيد، لهيك صممتها. ولهيك ما ظهر شي على الجهاز بيخصني، لأن السلسلة الأصلية كبّيتها بالزبالة، ولهيك حتى تريز عرض الجهاز صور مشوشة إلها بس مو مفهومة، وهيك باقي البنات. أما أنا، فما ظهر شي غير "وش".**

_ كنت خايفة الأم دومينيك والأب شربل ياخدوا بالهن يوم الجمعة الماضية، بس ما انتبهوا لشي.

_ لهيك، جبتلكم سلسلتين تلبسوهن، وراح ندفن السلسلتين الأصليتين تحت الشجرة.

أبدت تريز وشانتيل إعجابهما بفكرة سارة "العبقرية"، وبعد أن دفنّ السلسلتين الأصليتين وارتديتا ما صنعت لهن سارة، شعرتا باطمئنان كبير، حتى أتى يوم الجمعة.

خافت الفتيات أن يُكشف أمرهن، لكن لم يكتشف الأب شربل أو الأم دومينيك ما حدث، ولم يعرض الجهاز سوى "وشوشة" لا يُفهم منها شيء. أما باقي الفتيات، فقد عرض الجهاز لهن صورًا واضحة جدًا، على عكس المتوقع.

يبدو أن محاولات الفتيات في صرف أذهانهن عن التفكير في أي شيء مشين، جعلهن أكثر انغماسًا فيه.

اكتفى الأب شربل بتلك النظرة المعاتبة، وربما الشامتة، للفتيات، وانصرف في صمت، حتى تكرر الأمر في الأسابيع التالية، وبصورة كبيرة.

وقد لاحظت المدرّسات أن الطالبات أصبحن يُسهمن كثيرًا، حتى أثّر ذلك على تحصيلهن الدراسي. كما كثرت المشاجرات بين الفتيات بسبب تندرهن على خيالات بعضهن، وكذلك أصبح العنف ظاهرة مستجدة في المدرسة.

فبشكلٍ ما، قد تجرّأت الفتيات كثيرًا بعد ما تمّ عرض ما تخيّلنه، خاصة الفتيات المعروفات بالخجل الشديد.

فاجتمعت الأم دومينيك مع معلّمات المدرسة، وقرّرن ما يلي: أن هذا الجهاز أضراره أصبحت تفوق منافعه، لذا سيبلغن الأب شربل حين يأتي أنهن لا يرغبن بوجود هذا الجهاز في المدرسة.

لكن، قبل أن يأتي الأب شربل لأخذ الجهاز، كانت شانتيل قد استمعت إلى حوار بين إحدى العاملات في النظافة بالمدرسة، وهن يتحدثن عن قرار الأم دومينيك الجديد، فاجتمعت بصديقتيها تريز وسارة وأخبرتهن أن عندها خطة ما.

لكن سارة رفضت بشدّة الاشتراك في تلك الخطة، أما تريز فقد وافقت بشرط ألا يتسبب ذلك في إيذاء أحد أو ابتزاز أي شخص.

انصرفت سارة عنهن، وذهبت تريز وشانتيل لتنفيذ خطتهن في مكتب الأم دومينيك.

وفي الأسبوع التالي، أعلنت الأم دومينيك أن الجهاز لن يُستعمل مرة أخرى داخل المدرسة، وتهلّلت الفتيات كثيرًا بهذا القرار

في العام الدراسي التالي، قامت تريز بتوزيع روايتها بعنوان "أسرار البنات"، والتي فازت في المسابقة الأدبية في المدرسة. لكن زميلات تريز في الصف لم يُبدين إعجابهن بالرواية، بل على العكس، تمّ الهجوم عليها بشدة، نظرًا لأن أحداث الرواية تدور في مدرسة داخلية ومع فتيات في نفس أعمارهن.

وقد كانت حجتهن أن شخصيات الرواية فاسقة، وتُصوّر الفتيات بشكل غير مهذّب، وهو الأمر الذي أرهق تريز وشانتيل نفسيًا، خاصة وأنهما تعلمان أن تريز قد استخدمت خيالات الفتيات بعد أن سرقت شانتيل الجهاز العام الماضي أثناء

إرساله للتخلص منه بعيدًا، في أحد صناديق مخازن المدرسة، بعد أن رفض الأب شربل أخذه، وطلب من الأم دومينيك الاحتفاظ به.

وقد استخدمت تريز خيالات الفتيات تسلية أولًا، ثم مادة أدبية ثانية، خاصة وأن الفتيات لم يتخلصن من القلادة الخاصة بالجهاز، فنسين أمرها تمامًا، واستعملنها كقلادة عادية.

تساءلت تريز عن الفجوة الكبيرة بين خيال الإنسان ورغباته، وبين قيمه الأخلاقية، للحد الذي لا يجعله يتعرّف على خيالاته.

وتساءلت كذلك عن كراهية الأدب والفن الذي يعكس للمرء حقيقته التي يسعى جاهدًا لنكرانها.

الحكاية الثانية: الشك

ف في أحد قصور مصر خلال فترة الخمسينيات، كانت تعيش امرأة جميلة في بداية الثلاثينيات من عمرها، تُدعى ثريا العلي، وهي أرملة حسناء ورثت هذا القصر عن زوجها الثري. عاشت فيه وحيدة منذ وفاته، بصحبة خادمة واحدة فقط.

منذ ثلاثة أيام، علمت أن أحد الباشوات قد اشترى القصر المجاور، لكنها لم تعرف هويته في البداية. لاحقًا، أخبرتها خادمتها أن اسمه توفيق أبو السعود. لم تصدق نفسها، هل يكون هو توفيق، جارها القديم وحبها الأول؟

لذا أرسلت إليه خادمتها تحمل دعوة لتناول العشاء معها، لكنه اعتذر في البداية. لم يهدأ بال ثريا، فقد كانت تتوق للتأكد من هويته. حاولت أن تلتقي به صدفة عند خروجه من القصر أو عودته إليه، لكنها لم تستطع.

حتى جاء أحد الأيام، وذهبت إلى حفلة عرّفتها إحدى "الهوانم" هناك عليه. نظرت إليه طويلاً وتأملت هيئته؛ فقد ازداد وزنه، وبدا على وجهه مسحة حزن عميقة لم تكن فيه من قبل. تُرى، ماذا حدث له خلال خمسة عشر عامًا؟

حين تحدث معها، كان حديثه مقتضبًا، ثم غادر الحفلة بسرعة. لكنها، على الأقل، تأكدت أنه هو حبها الأول. جددت دعوتها له قبل مغادرته الحفلة لتناول العشاء سويًا، وقد وافق، لكنه لم يحدد موعدًا.

والآن، قررت أن ترسل خادمتها إلى قصره لتطلب من خادمه رقم هاتفه. عادت الخادمة بالفعل ومعها الرقم. ابتهجت ثريا بعد أن حصلت عليه، فقد أصبح بإمكانها أن تهاتفه في أي وقت، ليلتقيا من جديد.

في تلك الفترة، كانت ثريا تشعر بوحدة شديدة، وكان ظهور أي شخص من ماضيها يُمثّل لها حدثًا بالغ الأهمية. فقد أصبح الماضي هو الملاذ الآمن الذي تلجأ إليه هربًا من وحدتها في القصر. كانت أيامها القديمة مفعمة بالسعادة والترف، تعيش بين والديها وإخوتها، وتحب توفيق، ذلك الصحفي الواعد، وتحلم بأن تتزوجه وتُكمل دراستها في الجامعة.

لكن كل أحلامها تحطمت حين وقع ما وقع مع والدتها. تلك الفضيحة التي أصبحت النقطة السوداء في ماضيها، والتي لم تستطع نسيانها.

ثم أخذت تتساءل: تُرى، هل يحاول توفيق التهرب منها بسبب فضيحة والدتها القديمة؟

****

في الأيام التالية، أصبحت هواية ثريا الجديدة هي جمع المعلومات عن توفيق. كانت تُحضر كل الجرائد والمجلات التي يكتب فيها، وتلك التي كُتبت عنه. وجدت العديد من الإشاعات حول قصص حب ربطته بنساء من الطبقة الراقية، لكنها لم تجد ما يؤكد صحة أي منها.

أما الخبر الوحيد المؤكد، فكان زواجه من الممثلة والراقصة الصاعدة نازلي، وإنجابه منها طفله الوحيد. لكن تلك النجمة الواعدة لم تلمع طويلًا في سماء الفن، إذ سرق المرض عمرها، وانتزعها من أحضان زوجها وابنها، حتى وافتها المنية منذ عامين.

كانت هذه أبرز المعلومات التي جمعتها ثريا من الصحف والمجلات.
تساءلت في نفسها: هل يكون سبب الحزن العميق في عيني توفيق هو تجربة مرض زوجته ورحيلها؟

ومرت الأيام، واختفى توفيق من قصره فجأة. فبعثت ثريا خادمتها إلى حارس قصره لتسأله عن أمره، لكنه أجاب بأنه لا يعلم شيئًا، سوى أن طفل السيد توفيق مريض منذ فترة، وأنه وضعه عند عمته لترعاه مع أبنائها، وربما ذهب إليها ليطمئن على حالته.

****

_ فتحية.. فتحية

استيقظت فتحية، الخادمة، على صوت سيدتها ثريا تناديها. أسرعت إلى غرفتها، فوجدتها جالسة على فراشها، وعليها علامات الخوف من شيء لم تدركه فتحية، لكنها اعتادت أن تراها على هذه الحال. اقتربت منها واقترحت أن تُحضِر لها كوبًا من الليمون لتهدئة أعصابها، فأذنت لها ثريا أن تفعل ما اقترحت.

خرجت فتحية من الغرفة لإعداد الليمون، بينما حاولت ثريا الاسترخاء، لكنها لم تستطع. سيطرت عليها فكرة واحدة: أنها ربما تموت هذه الليلة. شعرت أن الموت قد يأتي في أي لحظة.

ماذا ستفعل؟ وهل بوسع الإنسان أن يفعل شيئًا حيال الموت؟

حاولت طرد هذه الأفكار من رأسها، لكن دون جدوى. ثم تذكرت الأجندة التي كتبت فيها رقم هاتف توفيق. ربما إن تحدثت معه قليلاً، استطاعت أن تُبعد ذهنها عن فكرة الموت

أخرجت الرقم من الأجندة في الوقت الذي دخلت فيه فتحية حاملة كوب الليمون. لم تهتم به ثريا، وكل ما فكرت فيه هو أنها تتمنى أن يُجيبها توفيق.

وبالفعل، أجاب. وسعدت بذلك كثيرًا، رغم نبرة الحزن التي لمستها في صوته. ومع ذلك، وافق أن يأتي إلى قصرها ليتحادثا سويًا.

****

تأخّر توفيق عن موعده، فشغّلت ثريا إحدى أسطوانات الأغاني الفرنسية التي تحبها. وحين طال انتظاره أكثر، أحضرت إحدى روايات الأدب الروسي التي كانت تفضّل قراءتها، وأخذت تقرأ منها بصوتٍ عالٍ في بعض الأحيان.

كانت فتحية تسمعها من الخارج دون أن تفهم شيئًا مما تقرؤه سيدتها، وتبدو لها في تلك اللحظات كإحدى المجذوبات.

لاحظت ثريا أن الوقت قد تأخّر كثيرًا، فأدركت أن توفيق لن يأتي. شعرت بالمهانة، فقد كان بإمكانه على الأقل أن يعتذر، لكنه لم يفعل. صعدت إلى غرفتها وعيناها دامعتان، حاولت فتحية التخفيف عنها، لكن دون جدوى. رغبت ثريا في النوم، علّها تنسى ما حدث. وبعد محاولات، نجحت أخيرًا في أن تغفو.

وفي الحلم، رأت نفسها جالسة تقرأ إحدى روايات دوستويفسكي، محاطةً بالشموع من كل جانب. وفجأة، تسقط إحدى الشموع سهواً على طرف فستانها، فتبدأ النار في التهامها، وتعلو صرخاتها.

استيقظت من نومها مذعورة، بحثت عن الساعة فوجدتها تجاوزت الثانية بعد منتصف الليل. ومن الشرفة، سمعت صوت محرك سيارة، فأسرعت لترى... إنه توفيق، عائد إلى منزله. في لحظة، نسيت ما فعله بها اليوم، نسيت غضبها، ولم تتذكر سوى شعورها بالخوف، ورغبتها الوحيدة: أن يأتي إليها.

فتناولت الهاتف... واتصلت به.

_ توفيق.. أنها أنا.. ثريا العلي، هل تذكرني لقد اتفقنا أن نتقابل اليوم

_ الوقت تأخر، ربما الغد

_ لا.. لا أستطيع أن أنام، أشعر إنني سأموت، أنا خائفة، أرجوك أحضر لي الآن

صمت توفيق طويلاً على الهاتف، ثم وافق أخيرًا أن يأتي إليها. أغلقت ثريا السماعة، وذهبت لتخبر فتحية أن السيد توفيق سيأتي.

نظرت إليها فتحية بدهشة، لم تستوعب سبب قدومه في هذا الوقت المتأخر، لكنها كعادتها، أطاعت أوامر سيدتها دون سؤال.

****

فتحت الخادمة الباب لتوفيق، فوجد ثريا قادمة نحوه.

كانت قد رتّبت شعرها، ووضعت قليلًا من مساحيق التجميل، مع أحمر شفاهٍ فاتح. بدت متألقة رغم بساطة مظهرها، تحمل في وجهها ابتسامة دافئة وسعادة واضحة.

أما توفيق، فكان وجهه كئيبًا، وهيئته رثّة، على الرغم من ارتدائه بدلة أنيقة، بدا كمن لم يغيّرها منذ وقتٍ طويل.

رحّبت به ثريا بوجهٍ باسم، فيما ظل هو منكس الرأس، يحمل في ملامحه ألمًا صامتًا. لاحظت ثريا ذلك، فاستهلّت الحديث بسؤاله:

_ أخبرني حارس منزلك أن ولدك مريض هو عند عمته الآن، هل تحسنت صحته

_ لا.. بل مات اليوم

صُدمت ثريا من رد توفيق.

هل هذا ما كان يمنعه من المجيء؟ وهل هذا ما يُفسّر الحزن العميق في ملامحه؟

حاولت أن تجد الكلمات المناسبة، ثم قالت بصوت خافت:

– أعتذر... لم أكن أعلم. رحمه الله.

أتعلم؟ أخبرني والدي أن الطفل الذي يموت صغيرًا يكون شفيعًا لوالديه.

صمت توفيق لحظة، ثم قال بهدوء كالسهم:

– وماذا إن لم أكن والده؟

تسمرت ثريا في مكانها، وقد زادت صدمتها بما سمعته.

– ماذا تقول؟! أليس هو ابنك؟!

رفع توفيق نظره نحوها، بعينين ممتلئتين بالحيرة والأسى، وقال:

– ثريا... كيف استطعتِ أن تغفري لوالدتك؟

بدأت تتنفس ثريا سريعًا، وحاولت أن تمنع نفسها من أن يظهر عليها الغضب كعادتها حين يتكلم أحد عن والدتها بهذه الطريقة، وقالت بهدوءٍ مصطنع:

_ لماذا تفتح هذا الموضوع الآن؟ ثم إن والدتي بريئة مما نُسب إليها.

– كيف بريئة، وقد قتلها والدك بعد أن ضبطها مع صديقه في شقته؟

– لا، لا... لقد أساء أبي الفهم. كانت والدتي هناك لزيارة زوجة صديق أبي، لكنها لم تكن تعلم أن زوجته قد غادرت المنزل.

– آه يا ثريا... كيف لكِ أن تخدعي نفسك بهذه الطريقة؟ لقد قتل والدك والدتك. هل تظنين أنه كان سيقتلها إن لم يجدها في وضع مُخِل؟ لقد برّأته الشرطة من التهمة، لأنها قضية شرف

بدأ وجه ثريا يحتقن بالدماء، لكنها حاولت أن تبقى هادئة قدر الإمكان، فقد اعتادت مثل تلك الأقاويل منذ وفاة والدتها.

– حتى إن أدانت المحكمة أمي، إلا أن قلبي متأكد من براءتها. إني حتى لستُ بحاجة إلى دليل مادي. أعرف أنه قد حدث لبس في الأمور عند أبي. لا أعرف ما سبب هذا اللبس، لكني متأكدة أن أمي لا تفعلها... أنا متأكدة من ذلك.

– أنتِ محظوظة إذًا لأنك متأكدة، لأنك لم تُجرّبي الشك.

– ماذا تقصد؟

– حين توفيت أمك، هاتفتِني وقتها وقلتِ لي إنكِ رأيتِ منامًا، رأيتِ فيه حقيقة ما حدث مع والدتك، وأن أباكِ قد تسرع قبل أن يفهم الحقيقة.

ظلت ثريا صامتة تحاول أن تتذكر، ثم قالت:

– نعم، لقد حدث ذلك.

– لكني، حينها، لم أخبرك أن عقلك لم يستوعب الصدمة العاطفية التي تعرض لها، فاختلق تلك القصة حتى يحافظ على صورة والدتك التي تحبينها جدًا.

صمتت ثريا أمام كلامه، وشعرت بدوار خفيف، فاستندت بجسدها إلى الأريكة. هل يمكن أن تكون الحقيقة التي صدقتها طوال تلك السنوات ليست إلا كذبة من عقلها... ليحميها؟

ثم تذكّرت أنه، عقب وفاة والدتها، أصرّ والدها على تزويجها من رجل يكبرها بأكثر من أربعين عامًا، لأنه خاف ألا يتقدم لها أحد. دُفن شبابها معه، حتى مات، وورثت عنه هذا القصر.

أفاقت من أفكارها، ونظرت إلى حبها الأول... الذي لم يعد كذلك، وسألته:

– توفيق... لماذا أتيت الليلة بعد وفاة ابنك؟

ثم انتبهت ثريا إلى أن توفيق لم يجلس منذ أن دخل القصر، فعزمت عليه أن يجلس، ونادت فتحية كي تُحضِر له شيئًا ليشربه.

جلس توفيق، فتأملته جيدًا. بدا لها مغلوبًا على أمره، وليس في وضع يسمح له بالمراوغة. أجاب توفيق عن سؤالها أخيرًا:

– جئت لأسألك: كيف استطعتِ أن تُحبي أُمك؟ ماذا كنتِ تفعلين كلما شعرتِ بالشك فيها؟

حاولت ثريا أن تفهم ما الذي يحاول أن يلمّح إليه، وما علاقة هذا بابنه، ثم سألته:

– قلتَ لي إن ابنك ربما لا يكون ابنك... ماذا تقصد؟ هل كنت تشك في نازلي؟

– لا، لم أشك في نازلي... لأنها اعترفت لي بخيانتها.

اتّسعت حدقة عيني ثريا، غير مصدّقة ما تسمع، وأدركت أن توفيق قد أتى إليها ليحكي ما لا يستطيع قوله لأي أحد، باعتباره شخصية عامة. فأكملت قائلة:

– وماذا فعلتَ معها؟

– لم أفعل شيئًا، كانت تحتضر. أرادت فقط أن أسامحها قبل أن تموت. كنت أرغب في أن أغضب، أن أنتقم منها... لكنها كانت في حالة يُرثى لها. أخبرتني... ثم أسلمت الروح، قبل أن أستطيع أن أفعل شيئًا. لقد سرقت حقي في الغضب... في الانتقام منها.

– إذًا، ما هو الشك الذي تحسدني أني لم أجربه، إذا كنت قد تأكدتَ من خيانتها؟

– هو الشك في ابني.

منذ عامين، وأنا أتساءل: هل هو ابني فعلًا؟ أم ابن غريمي ذلك الذي لا أعرفه؟ لقد شككت في كل شيء. استعدت كل ذكرياتي معه منذ وُلد، وشعرت حينها أن نازلي قد سرقت مني حتى هذه الذكريات. فكلما تذكّرت لحظة جمعتني بابني... تذكّرت شكي في بنوّته لي.

قاطعت حديثنا فتحية، وقد أتت ومعها كوب قهوة.

تناوله توفيق، وانصرفت فتحية، فأكملت حديثي إليه:

– لذا أودعتَ ابنك عند عمته؟ هل كانت تعرف هي الأخرى بشكوكك؟

– لا، لم يكن أحد يعرف. لم أقبل أن تُجرَح كرامتي أمام أحد، حتى أختي. أخبرتها فقط أنني لا أستطيع الاهتمام به وحدي. والحقيقة أنني لم أستطع الحياة مع الشك. كلما نظرت إلى وجهه، ساورني السؤال: هل هو ابني؟ أم خديعة عمري؟

– وهل كرهته؟

– لا، لم أكرهه. لكني حين بدأت أشكّ أنه ليس ابني، توقفت عن حبه.

لكن لم أكرهه بالطبع... أنا فقط طلبت من قلبي أن يتأنى قليلاً.

– وكيف له أن يتأنى؟

– كنت، حين أرغب في احتضانه، أمنع نفسي حتى أتأكد إن كان يستحق هذا الحضن أم لا. وكلما تقرّب إليّ، صدَدتُه عني... حتى أطمئن أنه ابني.

– وهل تأكدتَ أنه ابنك؟ وهل اطمأننتَ؟

– لا، لم أتأكد.

لم تكن هناك وسيلة لأتأكد.

وكنت أخشى أن أبحث في الماضي، كي لا أجرح صورتي أمام أحد، أو تتسرب الشائعات حولي وحول ابني.

– ثم ماذا؟

صمت توفيق قليلاً، ثم تناول كوب القهوة، وأفرغ ما تبقى فيه في جوفه، وقال لثريا:

– ثم اكتشفت أنني مغفل كبير... لا أكثر.

– لماذا تقول ذلك؟ هل اكتشفتَ أنه ليس ابنك؟

– لا... بل اكتشفتُ أنه ابني، ابني الذي أحبّه.

لقد ضيّعت من عمري ومن عمر صغيري عامين، وأنا أمنع عنه حبّي واهتمامي، وأمنع عن نفسي ذلك القلب الصغير الذي أحبني كوالده... فقط لأنني لم أكن متأكدًا من بنوته الجسدية. وقف الشك في قلبي، يمنعني من أن أسمح لنفسي بحبه... حتى مات.

مات، فأدركت كم كنت أحبه. منذ شهر، وأختي تحادثني كي أذهب لرؤية صغيري، الذي كانت حالته الصحية تزداد سوءًا. وأنا كنت أتهرّب من رؤيته، لأني أعلم أنني سأضعف أمامه حتمًا...حتى ذهبت اليوم... لدفنه.

بدأت عينا ثريا تزرفان الدموع، فنظر إليها توفيق قائلاً:

– لا تبكي، من فضلك... إني لا أستحق هذه الدموع.

أنا من اختار أن يُبعد نفسه عنه.

إن كان أحد يستحق هذه الدموع... فهو ابني، لا أنا.

نظرت ثريا حولها وهي تجفف دموعها، فوجدت أن الصباح قد أشرق.

انتبه توفيق إلى ذلك، فاستأذنها للخروج، وودّعها بعد أن جاء ليحكي قصته مع الشك. أما هي، فقد أثار كلام توفيق شكّها في كل ذكرياتها مع والدتها... وكأنها تكتشفها من جديد.

الحكاية الثالثة: كيف ترتكب جريمتك الأولى

مساحات شاسعة من الزرقة، زرقة السماء وتلك المنعكسة على البحر، تحيط بي من كل جانب. السماء فوقي، والبحر يحملني. أفكار كثيرة تتزاحم في رأسي، لا تتناسب مع هدوء المكان من حولي.

ماذا سيحدث إن لم يجدني أحد؟ ماذا سأكل حين تنفد المؤونة التي معي على المركب؟

بالتأكيد هم يبحثون عني الآن، فأنا لست أي شخص. أنا ليلى عبد القادر. يتهافت الجميع للحصول على موعد لديّ. كتبي من الأعلى مبيعًا، تتواصل معي القنوات التليفزيونية لإجراء الحوارات، وتحقق فيديوهاتي أعلى نسب مشاهدة على مواقع التواصل الاجتماعي.

أمتلك ثروة مالية ضخمة، جمعتها بجهدي وعملي طوال سنوات في مهنتي كـ"مدربة حياتية". أساعد الناس على تحقيق أهدافهم الشخصية، وخاصة أولئك الذين يدفعون مبالغ طائلة لحضور جلساتي، والذين أصبحت أختص بهم دون غيرهم. فبغيرهم، ما كنت لأصبح بهذا الثراء الفاحش.

إنهم المجرمون العاجزون عن تجاوز جرائمهم، فأتوا إليّ.

وكذلك كتبي وفيديوهاتي... كلها لمساعدتك في: كيف ترتكب جريمتك الأولى.

آه يا الله... ما كل هذا الهدوء الذي يحيط بي؟ إنه لا يدفعني إلا إلى الجنون حتمًا. لم يكن عليّ أن أذهب في القارب بمفردي.

ـ لكنكِ لستِ بمفردك.

نظرت خلفي لأعرف من يتحدث.

في البداية لم أتبين ملامحها، كانت الرؤية مشوشة. دققت النظر جيدًا... شعر أبيض كثيف، وجسم هرم. تُرى، من تكون تلك العجوز الجالسة أمامي؟

ـ هل نسيْتِ من أنا يا ليلى؟

هذا الصوت... نعم، هذا الصوت أعرفه.

كيف لي أن أنسى... جريمتي الأولى؟

****

حسنًا، فلنحكِ الحكاية من البداية.

أنا لستُ وضيعة، ولستُ تربية شوارع، بل على العكس تمامًا.

أنا فتاة من عائلة أقل من المتوسطة، تربيت منذ صغري على المبادئ والأخلاق. أهلي أناس عاديون، أدخلوني الجامعة حتى أصبحتُ طبيبة صيدلانية، فتاة مهذبة يحبها الجميع.

كانت ظروفي الاقتصادية صعبة إلى حدٍّ ما، لكنها لم تكن سيئة جدًا.

تخرجت وبدأت العمل، ولم أكن أتوقع أن تكون الحياة بهذه القسوة، ولا أن يكون المال هو كل شيء، بعكس ما علمونا.

عملت في إحدى الصيدليات، وكنت أزور مريضة لأعطيها جرعات الدواء: السيدة فاتن علوي، امرأة مسنّة، سافر أولادها إلى خارج البلاد.

كانت تعاني، إلى جانب علّتها الجسدية، من وحدة قاسية. ولهذا لم أكن فقط مَن يُعالجها، بل كنت مَن يُؤنس وحدتها أيضًا.

كانت تتعمد، كلما ذهبت إليها، أن تفتح معي أحاديث مختلفة، محاولة إطالة الوقت الذي أقضيه معها.

وأحبّ الأحاديث إلى قلبها كانت تلك التي تحكي فيها عن فترة شبابها.

لم أكن أفعل شيئًا سوى الاستماع إليها باهتمام.

ويبدو أن ذلك لم يكن يحدث معها كثيرًا، فربما مَن حولها قد سئم من حديثها المكرر، الذي لا يهم أحدًا سواها.

لكنها كانت تملك ابتسامة حلوة، وبرغم تجاعيد الزمن على وجهها، كانت ملامحها تحتفظ ببراءة طفولية.

كانت تخبرني عن حبها الأول، الذي لم تستطع الزواج منه، وكيف كانت فاتنة في شبابها، يرغب الكثير من الرجال في الزواج بها، فهي سليلة الحسب والنسب.

إلا أن والديها اختارا لها زوجًا غنيًا، أنجبت منه ابنتين، تركتاها لاحقًا وسافرتا.

وهكذا أصبحت وحيدة.

كانت تعيد عليّ هذه القصة كلما رأتني. تبدأ القصة ببداية سعيدة لفتاة شابة والعمر أمامها، وتنتهي نهاية حزينة لامرأة عجوز، تعاني من آلام الوحدة والمرض.

مع الوقت، تقربتُ منها كثيرًا، حتى عرضت عليّ أن أكون مرافقتها في منزلها، مقابل أجر مجزٍ.

ترددت في البداية، ثم قبلت عرضها أخيرًا.

أصبحت قريبة منها جدًا، فحين يشيخ المرء، يصبح قلبه برقة الأطفال؛ ينجرح من أبسط الأمور، ويسعد بأصغرها.

ولهذا كانت تُقدّر لي أنني أستمع إليها، فقد كان ذلك هو الشيء الوحيد الذي يخفف من وطأة وحدتها الشديدة، وشعورها بأنها امرأة منسية في آخر أيامها.

كانت تشتاق إلى ابنتيها كثيرًا، وفي قلبها غصة نحوهما، فقد كان قاسيًا جدًا عليها أن تُترك بهذا الشكل.

وربما كان ذلك هو السبب في القرار الذي غيّر مجرى حياتي...

فقد أوصت لي بنصيب كبير من تركتها عقب وفاتها.

****

لم أكن أتوقع ذلك، ولم أكن أعرف كيف ستكون حياتي حين أمتلك قدرًا من المال. لم أكن أعلم كم ستعطيني، لكنها كانت كريمة جدًا معي. فكرت حينها: لن أضطر إلى العمل كثيرًا بعد اليوم، ولن أتذلل لأحد من أجل بضعة جنيهات.

لكنها أخبرتني لاحقًا أنها ستمنحني هذا القصر الذي تسكن فيه.

صُدمت حقًا.

– لكن، ماذا عن بناتك؟ لن يوافقن على ذلك!

نظرت إليّ بحسرة وقالت:

– إن متُّ الآن، لن أجد واحدة منهن. فقط سيأتين لحضور جنازتي، ثم يغادرن ثانية. لقد هاجرن منذ سنوات، وأصبحت حياتهن بالكامل خارج البلاد.

أما هذا القصر، فسيبعنه بالتأكيد، وربما يُهد ليُبنى مكانه أحد المولات أو أماكن التسوق. لا أرغب في ذلك. أرغب أن يحيا فيه أحد أحببته... وأنتِ مَن أحببت.

تأثرت كثيرًا بكلامها.

أخبرتُ خطيبي بما حدث، فقد حُلّت مشكلتنا، سيكون هذا القصر بيتنا.

لكنه شككني في كلامها. هل كانت جادة؟ وماذا عن بناتها؟

ثم مر وقت، أكثر من عام، وكنتُ قد نسيت وعدها لي واعتبرته مجرد فكرة عابرة خطرت ببالها ذات يوم.

كانت حالتها الصحية قد ساءت كثيرًا، وكنت بجانبها وقتها.

فجأة، جدّدت وعدها القديم لي بامتلاك هذا القصر. لم أصدق أنها ما زالت تتذكره. لكن أشرف، خطيبي، أخبرني أن ابنتيها لن تتركاها تفعل ما تريد، ولهذا قررت أن أنسى ما قالته لي.

لكنها لم تسمح لي بالنسيان. بل كانت تلوّح دائمًا بأنها ستنفذ وعدها.

لم أفهم لماذا فعلتِ هذا بي يا فاتن... كنتِ تتلاعبين بي.

كلما نسيتُ كلامك، تذكرينني بأنني سأمتلك المنزل الذي أعمل فيه.

نظرت إليّ نظرة طويلة... لكني لم أستطع أن أستخرج منها أي تعبير.

كانت نظرة غامضة.

فأكملتُ في داخلي:

ربما لو تركتِني أنسى... لنسيت.

لكنكِ لم تتركيني أنسى.

حتى جاء ذلك اليوم الذي مرضت فيه فاتن كثيرًا.

وكعادتي، كنتُ بجانبها.

أخبرتني أنها ستكتب وصيتها، وأن القصر سيكون من نصيبي.

هذا ما قالته.

تملكتني الأحلام حينها، ولم أستطع أن أقاومها.

بعدها، سمعت صوتها وهي تتشاجر على الهاتف.

لم أعرف مع مَن، لكني حاولت التنصت.

استنتجت أنها كانت تتحدث مع إحدى ابنتيها.

حاولت أن أستمع أكثر، وسمعت اسمي.

هل كان الشجار بسببي؟ ربما من أجل القصر؟

لم أجرؤ على سؤالها، لكني لاحظت تعكر مزاجها طوال اليوم.

وبعد مرور بضعة أيام، تأكدتُ من وجود خلاف بينها وبين بناتها.

لكنها عادت وأكدت لي أنها ثابتة على موقفها، وأن القصر لي.

جاءني خاطر حينها...

ماذا لو رضخت فاتن لرغبة بناتها؟

لن آخذ القصر.

تذكرت كلام أشرف، وشرد ذهني وسط هذه الأفكار وأنا أُعدّ الأدوية لها.

كانت مريضة وتتألم. نعم، مريضة وتذبل.

لِمَ أُعطيها الدواء كي أُطيل من بقائها على الأرض؟

أيامٌ من العذاب؟

ذهبت إليها ومعي الدواء.

ثم خطرت لي فكرة: ماذا لو لم أُعطها الدواء؟

فمعظم الأدوية فقدت فاعليتها، وجسدها كوَّن مناعة ضدها.

نفضتُ الفكرة عن خاطري.

وأعطيتُها الدواء.

قاطعت فاتن حبل أفكاري قائلة

_ثم ماذا.. قررت قتلي

_ لا لا.. أنا لم أقتلك، أنا كنت أحبك فاتن هل نسيتِ، كنت استمع إليكِ وكنت أقرب شخص لكِ، أردت فقط أن أريحك، اترك جسدك المريض يرحل بهدوء دون معاناة، ألا تذكري كم عانيتِ

هكذا كان تفكيري وقتها، سأُرِيحها وأرتاح أنا معها. ثم إنها امرأة عجوز، أكل المرض جسدها، والدواء لن يفيدها. رحيليها... رحمة بها.

هكذا كنتُ أفكر. لم أكن أقتل، فالقتل يحدث فقط حين تكون هناك فرصة للحياة. أما إذا كان الاختيار بين موت قريب وآخر بعيد، أليس الموت القريب هو الرحمة؟

هذه هي أولى قواعد الجرائم التي تعلمتها: أن تُغيّر مسميات جريمتك حتى تستطيع أن ترتكبها.

لا يوجد مجرم على هذه الأرض يُسمّي الأشياء بمسمياتها، فعقلنا البشري لا يحتمل ذلك.

لذا، سميتُ قتلي لفاتن... "موتًا رحيمًا".

.....

بالفعل، ماتت فاتن.

لم أكن أعرف تحديدًا ما السبب في موتها.

هل هو قدرها المحتوم بعد أن فتك بها المرض؟

لقد طوّر جسدها مناعة ضد الدواء، لذا لن يُهم إن كانت لم تأخذه.

ولن يعرف أحد ذلك

كل هذه الأفكار لم تمنعني من الخوف...

كنت أرتعد وأنا واقفة أمام جثتها.

شعرت أن هذا القصر قد أصبح فجأة كبيرًا جدًا، موحشًا ومُخيفًا.

تركت جثتها في الغرفة، وذهبت إلى الصالون.

كوّمت جسدي على الأريكة، ودفنت رأسي بين ساقيّ.

شعرت بالصقيع يتسلل إلى داخلي، برد لا علاقة له بالجو

تمنيت لو يأتي أحدهم وينقذني من جريمتي...

وكأنني فجأة يُتِّمت.

ثم رغبت في البكاء...

لكنني لم أبكِ.

****

أحضرتُ الطبيب، وكتب أن سبب الوفاة طبيعي، ثم دُفنت.

حضرت ابنتاها، سارة وإنچيل، عزاء والدتهما بصحبة أزواجهما وأولادهما، ومثلما قالت فاتن تمامًا، رغبن في إنهاء كل شيء سريعًا ليُتابعن السفر.

إنچيل صدّقت روايتي، ولم تكن لديها شكوك تجاهي، أما سارة فقد اتهمتني علنًا.

ظللت أدافع عن نفسي أمامها: كيف لي أن أخون امرأة في عمر والدتي؟!

عشتُ معها أكثر من عام كامل. أحببتها، وأحبتني.

ظللت أكرر كلامي كثيرًا... حتى صدّقتُ نفسي.

كل شيء كان طبيعيًا. أنا لم أفعل شيئًا.

موتها كان نتيجة حتمية بعد أن أضناها المرض.

علمت وقتها أن الكذبة، كلما كررتها... ستصدقها نفسك.

ولو أن أحدًا وضعني على جهاز كشف الكذب، لاكتشف صدقي.

ليس هذا فقط...

بل حين كنت ألمح شبح الاتهام في عيني سارة، كنت أشعر بغصّة في حلقي،

ليس خوفًا... بل شعورًا بالظلم.

رغم أن سارة كانت محقّة في اتهامها، وشكوكها نحوي كانت حقيقية، إلا أنها لم تكن تملك دليلًا.

لكنني، من كثرة ما رويتُ لها قصة مظلوميتي، صدّقتها أنا نفسي.

هل رأيتِ، يا فاتن؟

كيف يمكن للإنسان أن يخدع نفسه؟!

صمتت فاتن صمتها المريب ونظرت إليّ طويلًا وقالت

– ثم أقمتِ في منزلي، كما كتبتُ في وصيتي لكِ، وتزوجتِ فيه أيضًا، وكأن شيئًا لم يكن.

– الأمر لم يكن بهذه البساطة يا فاتن.

نعم، عشتُ في قصرك وتزوجت، لكن ظل شبحك في عقلي يا فاتن. وجودي في منزلك، على سريرك، كان يعيد إلى ذاكرتي ما حدث.

أنا فتاة من عائلة، يا فاتن، وربّاني أهلي على تربية دينية ورعة، علّموني أن كل فعل سيئ سنُحاسب عليه وندفع ثمنه.

لذا، انتظرت أن أدفع الثمن.

حملتُ حينها في طفلي الأول، لكنني أجهضته. ثم حملتُ في طفلي الثاني، وأجهضته أيضًا. لم يكن يعيش لي أطفال. وقتها، اعتقدت أن هذه لعنتك.

تابعتُ مع الأطباء لمعرفة سبب الإجهاض المتكرر، لكني كنت أشعر أنكِ أنتِ السبب، يا فاتن. لم أعد أحتمل تلك الحرب النفسية التي اشتعلت داخلي، فقررت أن أذهب إلى معالج نفسي.

ابتسمت فاتن نصف ابتسامة ساخرة، وضاقت عيناها بمكر.

نظرتُ إليها، وأنا أتفهّم نظرتها، وقلت:

_ نعم، ذهبتُ إلى معالج نفسي. كنتُ أرغب في أن أحيا حياة طبيعية.

هل رأيتِ دناءة أكثر من ذلك؟ كنت أريد أن يُريحني المعالج من عذاب ضميري، حتى أستطيع أن أستمتع بما أخذته منك.

لم أكن أرغب في الندم، أو في التغيير... فقط رغبت في إطفاء شعوري بالذنب.

لكنني لم أستطع أن أمنح المعالج ثقتي، لذا قررت أن أدرس بنفسي، أن أساعد نفسي، وأبدأ رحلتي في قتل ضميري... للأبد.

****

لقد قبلتُ أن أكون من الأشرار.

هؤلاء الأشرار الذين كنت أسمع عنهم في التلفاز، وأقرأ عنهم في الأدب، ويتحدثون عنهم في العظات الدينية.

الأشرار الذين، حين نسمع عنهم، نقول "هم"، ونُثني أنفسنا عنهم.

أما أنا، فقد عددتُ نفسي منهم.

وحين تُصنّف نفسك كشرير، لا تشعر بذلك الشعور الكلاسيكي بالذنب، بل تشعر في أعماقك بنوع غريب من الشفقة على نفسك.

صوت داخلي عميق يخبرك أنك ضحية، حتى وإن كنتَ ضحية لنفسك... لرغباتك. ففي أعماق كل وغد، يوجد إحساس دفين بالعجز... العجز عن تغيير ذاته، أو تغيير حياته. وحين يغمره هذا الإحساس، قد يغضب من نفسه، أو من الحياة، أو حتى من الله ذاته.

حينها، يرى نفسه الجاني... والضحية في آنٍ واحد..

درستُ الـLife Coaching، وبدأتُ أساعد نفسي.

حتى يستوعب العقل ما فعلته، يجب أن تُخفف من وطأة الفعل.

تغيير المسميات كان ضرورة قصوى.

دعنا نسمِّي الطمع "طموحًا"، والنذالة "نوعًا من الذكاء"، واستغلال الآخرين لتحقيق أهدافك "ذكاء اجتماعي"، والقدرة على الإيذاء "قوة شخصية"، والجبن "حكمة"، والخِسّة والخيانة "واقعية".

وهكذا... حسب جريمتك.

في حالتي، اضطررت إلى إعادة صياغة أحداث القصة في عقلي، وأقنعت نفسي أن ما فعلته معكِ كان بدافع الحب، وليس الطمع.

أنني فعلتُه لمساعدتك أنتِ، قبل أن أساعد نفسي.

أما عن وسواس "لعنتك"، فقد أقنعت نفسي أنه مجرد أفكار... لا أكثر.

مجرد هواجس في عقلي، لا تأثير لها في الواقع.

لن يحدث لي شيء قصاصًا لما فعلته معك.

وبالفعل، نجحت.

حملت بطفلي... وأنجبتُه.

وحينها فكرت: لمَ لا أستثمر هذا النجاح مع غيري؟

مع مجرمين آخرين... مثل حالتي.

****

حين بدأتُ عملي، لم أكن أتوقع نجاحي، لكني بالفعل نجحت.

لذا قررت أن أتوسّع، واستهدف فئة بعينها: المجرمون المرهفون... رجال الأعمال، القادة، السياسيون، أولئك الذين يرتكبون جرائم ناعمة بقرار منهم أو إمضاء منهم، ممن يمتلكون قدرًا من الثقافة ورهافة الحس.

أما صغار المجرمين، فهؤلاء لا يحتاجون إلى تجميل جرائمهم أمام عقولهم، يكفيهم فقرهم، وما يحيط بهم من عنف، للتكيف مع جرمهم.

كانت هناك عدة استراتيجيات اتبعتها مع عملائي.

البداية، كما أخبرتك، هي تغيير مسمّى الجريمة، ومنحها اسمًا أرقى، يحمل معنى. ولم يكن ذلك صعبًا، فمَن كان يأتي إليّ، كان يحمل بداخله تبريرًا لما فعل، أو لما ينوي أن يفعل، ويطلب مسكنًا لضميره.

وما كان عليّ سوى تقديم أدلة منطقية تدعم هذا التبرير. وكنت بارعة في ذلك.

أما ثاني استراتيجية، فكانت: العادة.

شيء بسيط جدًا... لكن له مفعول السحر.

نعم، حتى الجرائم، يمكن أن يعتادها المرء، حتى القتل نفسه.

في البداية، ستشعر بوخز في قلبك، سيؤلمك ضميرك، ستتذكر ما تربّيت عليه من قيم.

هذا إن كنتَ مثلي، ومثل عملائي من "المجرمين المرهفين".

لكن، مع أول مرة ترتكب فيها جريمتك، سيخفت هذا الصوت داخلك...

ثم يخفت أكثر... حتى يصمت تمامًا.

وحينها، يصبح الأمر عادة. عندها، لن تشعر بأي أسف.

أما الاستراتيجية الثالثة، وهي الأهم، فكانت: عقلية الضحية.

إن كانت جرائمك لا يمكن تجميلها، فلا شيء أقوى من شعورك بأنك ضحية.

ما تعرضتَ له من ظلم، هو ما جعلك تصبح على ما أنت عليه الآن.

عندما يؤنّبك ضميرك، تذكّر مآسيك... وتذكّر كم تعذبت.

حينها، ستتشفق على نفسك... وتُكمل جرائمك

وقد نجحت نجاح كبير في عملي وحققت ثروة كبيرة وكتبت كتب أحدث الناس كيف يتخلصوا من ضمائرهم وقد نجحت، فالعالم المتلهف على المال والشهرة والنجاح أنجحني وصفق لي وأنا أقدم له ما يُسهل عليه مهمته.

نظرت فاتن لي ذاك النظرة وقالت

– وهل بهذه الطريقة يفقد الناس ضمائرهم للأبد؟

أجبتها:

– ليس في كل الحالات، الأمر يعتمد على ما يؤمن به المرء.

هناك حالات ظلّت مقتنعة أنها لا يمكن أن تتخلّص من ضمائرها... وبالفعل، لم تتخلص منها.

وهناك حالات أخرى صدّقت أنها تستطيع... ونجحت.

لكن، هل تظنين يا فاتن أن مَن ظلّت ضمائرهم حيّة قد تغيّروا؟ لا

كثير من الحالات التي تعاملتُ معها، ظلّ الضمير يوجعها، لكن سلوكها لم يتغير.

أحدهم كان يقوم بعمليات نصب واحتيال.

وفي كل عملية، يشعر بالذنب تجاه ضحيته، تراوده أفكار بالتراجع...

لكن ما إن يستلم نصيبه من المال، ينسى الأمر كليًا.

تخيّلي ذلك.

حبه للمال كان أقوى من شعوره بالذنب.

ولم يكن مستعدًا أن يتنازل عن نمط الحياة المرفّهة الذي اعتاده، ولا عن أساليبه التي أدمنها. مسكين حقًا

أخذت فاتن نفسًا عميقًا، ثم قالت وهي تنظر إليّ مباشرة، وقد أصبح في صوتها انفعال:

– لكن... هذا ليس عدلًا! ألن تدفعوا ثمن ما فعلتم

أجبتها:

– ومَن أخبرك أننا لا نفعل؟

لقد اعتاد الناس على نهايات درامية للأشرار، تتضمن خسائر مادية واضحة، فضائح، أو سجن لكن عالم الأشرار الحقيقي... نادرًا ما تحدث فيه مثل تلك النهايات. نحن لا نخسر المال، ولا المكانة.

لكننا نخسر أنفسنا. رغم كل ما نفعله لنتحايل على ضمائرنا... نعرف جيدًا من نحن.

ونحيا مع هذا الإدراك طوال الوقت.

– رد سينمائي بامتياز. كيف ذلك وأنتِ مهنتكِ أن تقضي على ما تبقّى من صوت الحق في قلوب عملائك؟

- سأخبركِ قصة.

كان يأتي إليّ شاب من أسرة ثرية.

نشأ بين أبوين لم يكن لديهما وقت له، فأغرقاه في المال، ونفّذا له كل طلباته، فقط ليتركهما وشأنهما.

كبر الصغير وهو لا يشعر بأي معنى لحياته، يحاول إشباع كل رغباته، بلا حدود.

أدمن الكحول، وبدأ يرتكب جرائمه تحت تأثيره.

قتل طفلتين وهو يقود سيارته مخمورًا، وتسبّب بعاهة دائمة لشاب في بداية عمره.

ورغم ذلك... لم يشعر بوخز في ضميره، ولا لحظة ندم.

على العكس، كان يحتقر ضحاياه.

همّه الأول أن يبحث مع محاميه عن ثغرة قانونية تُخرجه من العقوبة.

وقد نجح في ذلك.

لكنه، حتى يتمكّن من فعل ذلك، كان عليه أن يتوقّف عن الشعور...

ألا يرى آثار جريمته.

لأن رؤيتها كانت ستُحطّمه من الداخل.

ولذا، فضّل أن يقتل إحساسه بالآخر... ويحتقرهم.

ـ أهذا هو عقابه؟

ـ مهلاً... لم تنتهِ القصة بعد.

حين قرر أن يتوقّف عن التعاطف مع الآخرين...

فعل الشيء نفسه مع نفسه.

ولكي يتمكن من ذلك، كان عليه أن يجد تبريرًا منطقيًا،

فأقنع نفسه أن الحياة كلها بلا معنى،

وأنها لا تستحق أي مجهود.

لم يجد دافعًا ليُقلع عن الكحول، ولا ليُعالج كبده حين بدأ يتلف.

استهتر بكل شيء... حتى تلف جسده كله.

ثم... مات.

نظرتُ إلى فاتن أمامي، لكني لم أجدها.

ثم رأيت فاتن أخرى تجلس بجانبي، وأخرى تتمشى على القارب بعيدًا، وواحدة تقف في طرف القارب وتبتسم لي.

لم أعد أعرف أيّهن هي فاتن الحقيقية... أو إن كانت هناك "حقيقية" أصلًا.

وفجأة، سمعت صوت قارب قادم من بعيد.

رأيت بعض الأشخاص يقتربون نحونا، فشعرت أن هناك من سيُنقذني.

نظرتُ إلى الفواتن من حولي، وابتسمت لهن، ثم قلت بثبات:

ـ فاتن، لن أستسلم لكِ.

لقد قتلتُ من قبل... وسأقتلك الآن.

أعرف أنكِ لستِ سوى صوت في عقلي، ظهر لأنني كنت وحيدة... وخائفة على هذا القارب.

لكن الآن، أنا لستُ خائفة.

ولن أترك عقلي ينتصر عليّ.

سأقتلكِ ثانيةً في خيالي... حتى يموت معك ما تبقّى من ضميري..

الحكاية الرابعة: حكاية حياة

كان يومه الأول داخل المصحة النفسية. عليه أن يقابل أولى الحالات التي ستكون ضمن الجانب العملي في رسالة الدكتوراه الخاصة به.

قرأ ملف الحالات جيدًا، ووقع اختياره على تلك الحالة بعينها؛ إذ كانت تتضمن كل ما يبحث عنه... لكنها معقدة بالقدر نفسه، فالمريضة ترفض الحديث مع أي شخص. لكنه فكّر: ربما لكونه عربيًا مثلها، ستتحدث إليه

وقف أكرم أمام باب غرفة المريضة، أخذ نفسًا عميقًا... ثم تقدم وفتح الباب ودخل. وجد المريضة أمامه، كانت جالسة القرفصاء، تثبّت عينيها على الحائط كأنها في حالة جمود. كان قد قرأ عن "الـ Freeze" الذي يحدث كرد فعل لبعض الأشخاص عند شعورهم بالخطر.

جلس على المقعد المجاور لها. فكّر مليًا ماذا يقول... شعر أن الصمت بدأ يطول، وكان لا بد أن يكسر هذا الصمت. راوده أن يعرّف بنفسه ويخبرها أنه قد يستطيع مساعدتها، أو ربما يقول لها إنه مصري مثلها، ويستطيع فهمها جيدًا لأنهما من نفس الثقافة، ليس كغيره من الآخرين.

تنحنح مجددًا... لكنه شعر أن الكلمات لا تخرج من فمه، وأن حديثه يتبعثر فوق لسانه. وبعد عناء، قال:

_ أنا أكرم عادل .. أنا عارف حالتك وأن اللي مريتي بيه صعب ... أصعب حاجة ممكن تحصل لبنت هي حادثة اغتصاب جماعي .. أنا رسالة الدكتوراه بتاعتي عن الاغتصاب

تحدث باللهجة المصرية متعمدًا، حتى تعرف المريضة أنه مصري مثلها. كان يأخذ نفسًا عميقًا بين الجملة والأخرى، وصوته فاتر جدًا؛ ربما كانت هناك مشاعر حقيقية بداخله تحتاج للظهور، لكن نبرة صوته جاءت روتينية، وعلى وتيرة واحدة.

وقبل أن يُكمل حديثه، وجد المريضة تشيح بوجهها وتنظر إلى الجانب الآخر من الغرفة، ثم فجأة دفنت وجهها تحت الوسادة، وسمع صوت أنين يصدر منها.

ربما أخطأ في اختياره، فالمريضة يبدو أنها تعاني آلامًا حادة، وليست جاهزة كما ظن.

انتظر قليلًا حتى تكف عن البكاء... ثم طال انتظاره.

فكّر أن يستدير ويخرج من الغرفة، لكنه قال لنفسه إن تلك المريضة هي أول تحدٍّ له، ولا يجب أن يستسلم بهذه السهولة.

قال مرة أخرى

-على فكرة دي مش نهاية الدنيا زي ما بعقلك بيخدعك .. رسالة الدكتوراه بتاعتي عن حياه البنات بعد الاغتصاب

توقفت عن البكاء، ثم نظرت إليه بفتور. كانت تلك هي المرة الأولى التي تنظر إليه فيها منذ دخوله الغرفة.

شعر بالرضا في داخله... يبدو أنه حرّك شيئًا بداخلها.

_ أنا هنا عشان أساعدك لو أنت عايزة تتجاوزي محنتك .. أو تستلمي لألمك وتبقى دي نهاية الدنيا زي ما عقلك بيقولك

نظرت له شزرا.. وجهت له نظرات حادة

شعر حينها أنها ربما غاضبة منه أو تشعر أنه لا يستطيع فهم ما مرت به

نظر في ملفها وبدأ يقرأ معلومات

-اسمك حياة عبد الفتاح ..مصرية وبتدرسي في جامعة ستانفورد، جيتي هنا من شهر .. كنتي رافضة الكلام تماما وحكيتي أنك اتعرضتي لاغتصاب جماعي وهددتي بالانتحار

كان يتلو المعلومات سريعا كأنه آلة.. يرغب أن يذهب بالحديث لنقطة ما في عقله لكنه قبل ذلك وجد حياة تمسك بقبضة يديه وتضغط عليها بشدة وقالت:

- **مش أنت مصري زي .. طب أنا عرفت إني حامل .. قولي أعمل أية .. الإجهاض ممنوع هنا .. أحتفظ بالطفل و أريبه طب هقول اية لأهلي في مصر لو عرفوا أن عندي طفل .. أنا بكرهه مش عايزة أبقى أم له .. قولي أعمل أية**

كانت "حياة" تتحدث بسرعة وتنظر إليه مباشرة في عينيه. كانت تسأله، ونظراتها تستجديه عطفًا.

فكّر حينها أن يقول لها: "أجهضي نفسك... فماذا ستفعلين بطفل لا يُعرف من هو والده؟"

كان هذا صوت "المصري" بداخله.

لكن في الولايات، يمكنها أن تتابع علاجها حتى تستطيع تقبّل الطفل في حياتها.

وماذا عن أهلها في مصر؟

هي فقط طالبة مصرية تدرس هنا، وعليها العودة إلى مصر بعد انتهاء المنحة.

_ أهلك عارفين باللي حصلك

_ لا لا مستحيل أقولهم .. بابي يموت فيها

ما زالت حياة تقبض على يديه وكأنه المنقذ الذي يستطيع تغيير حياتها

أخبره صوته الداخلي أن الطفل يجب أن يجهض لكن لا يجب أن يفرض عليها أمرًا بل يجب أن تقرر هي.

أجاب بفتور

_ أنا مقدر جدًا الموقف وتعبك بس أنا ماقدرش اقولك تعملي أية. . أقدر بس اساعدك تاخدي قرارك ..انت اللي لازم تختاري

غضبت حياة بشدة صرخت به وهي ممسكة بيديه بعنف حاول أن يفك يديه من قبضتها لكنها كانت متمسكة بيه وصرخت به:

_ أنت لية مش حاسس بيا .. أنت بارد أوي وأنا بغلي

قبل أن يحاول أن يجيبها، انهارت من جديد في البكاء، ولم يعرف ماذا يفعل.

دخلت إحدى الممرضات وحاولت تهدئتها.

تساءل في نفسه: هل يجب عليه إبلاغ المستشفى بأنها حبلى؟

أسئلة كثيرة كانت تدور في ذهنه في تلك اللحظة، لكنه اختار التزام المهنية في التعامل مع الموقف، ولم يُفشِ سر المريضة.

بعد ذلك، جلس مع "حياة" جلستين، لم تكونا مثمرتين كما كان يتوقع.

ناقش معها احتمالات الاحتفاظ بالجنين أو الإجهاض، ولاحظ أكثر من مرة أنها تلمّح إلى معرفة سابقة بمن اغتصبها، بل وتربطها به علاقة وثيقة.

وخلال الحديث، أشارت إلى أنه شخص واحد، وليس جماعة كما قالت في البداية.

أصبح يشعر بأنها تخفي شيئًا ما.

ثم، فجأة... اختفت "حياة"، فقد هربت من المصحة.

وتابع هو حالاتٍ أخرى لإتمام رسالته.

وبعد مرور عشر سنوات...

اعتدلت "شيري" في جلستها، وقد بدا عليها الضيق. كانت تنظر إلى الساعة بتململ، تعلم أن زوجها سيحنث بوعده لها، وأنه سيأتي متأخرًا كعادته.

فقد كان تأخره المستمر بسبب عمله في العيادة، هو السبب الدائم للخلاف بينهما، إذ كانت "شيري" ترغب في أن يُقلّل من وقت عمله ليقضي وقتًا أطول مع أسرته.

ارتفع صوت "شيري" وهي تخاطب صديقتها المقرّبة "رنا":

_ قولتلك أنه أكيد هيتأخر زي عادته

_ جوزك بقى دكتور كبير وطبيعي يبقى مشغول

_ إحنا متفقين على الخروجة دي وأننا هنتقابل عندك انت وسعد هو قالي هاجي وأحصلك .. ماينفعش يتأخر كل ده

صوت قرع على الباب

_ تفتكري هو؟

تنظر رنا من العين السحرية

_ لا دي بنت خالتي اللي قولتلك هاعرفك عليها

فتحت الباب للضيفة واستقبلتها بترحاب شديد.

بدأ حديث ودي بين الأربعة: "رنا" وزوجها "سعد"، وصديقتهم "شيري"، وابنة خالة "رنا". ثم قُرِع الباب مجددًا، وإذا بـ"أكرم"، زوج "شيري"، يدخل وهو يحمل أعذاره لزوجته الغاضبة، ولصديقيهما "سعد" و"رنا"، عن تأخيره.

بدأ الجميع في تبادل الأحاديث، وأبدوا رغبة في التعرّف على الشخصية الجديدة، ابنة خالة "رنا"، التي ظلّت صامتة معظم الوقت، حتى عرّفتهم "رنا" بأنها تعمل في مجال تخاطب الأطفال.

قالت "شيري":

_ حكت لى عنك رنا.. قالت لي أنك متخصصة في المجال ده ودراستك في أمريكا

استرقت الضيفة النظر إلي أكرم وشعرت أنها رأته من قبل

قالت رنا

_ أنت عارفة أن ابن شيري نادر عنده صعوبات تعلم وأنا قولت لهم أنك تقدري تساعديه

ابتسمت الضيفة

_ خليهم يجبوا عندي المركز في أي وقت

_ بصراحة في مشاكل كتير في المدرسة بسبب الموضوع ده وأنت هتبقي أنقذتينا أضاف أكرم

تنبهت الضيفة إلى صوته.. بدا مألوفًا لها

سألته برقة مصطنعة عن عمله أجاب سعد نيابة عنه

_ أكرم عنده دكتوراه في ال psychology من أمريكا ودلوقت عنده عيادة وبيعالج

ابتسمت الضيفة في قلق، كانت قد تذكّرته... عرفته من صوته.

لكن، هل تذكّرها هو؟ لم تكن تدري.

بدأت تهزّ رجليها في توتر، ولاحظت أنهم قد ينتبهون لذلك.

حاولت إخفاء قدميها، لكنها فشلت في إيقافهما عن الاهتزاز.

نظرت إلى "أكرم" في عينيه..

_ خلاص يا دكتور تقدر تعتبر موضوع ابنك منتهي .. أنا بنفسي اللي هديله الدروس

_ هكون شاكر جدا

تأكدت أن الجميع لم يلحظ شيئا.. وعرفت أن أكرم لم يتذكرها خاصة وأن رنا ذكرت اسمها عدة مرات أمامه ولم يتغير به شيئا

قالت حياة أخيرًا:

_ قولهم في المركز أنك عايز حياة عبد الفتاح .. هي اللي تمسك حالة ابنك

****

حياة: **عامل أية يا doctor**

أكرم: **أية حكاية دكتور دي اللي كل شوية تقوليها دي .. التعامل بينا المفروض أنه مابقاش رسمي زي الأول**

مرت شهور على تعرّف "حياة" بأسرة "أكرم"، فقد كانت "رنا" تصحبها في الكثير من الخروجات مع "شيري" زوجة "أكرم"، للتسوّق أو الجلسات العائلية.

ساعدت حياة ابنهما كثيرًا في دراسته، حتى أحبها وتعلّق بها بشدة، وتقربت من الأسرة كلها... باستثناء "أكرم"، الذي كانت دائمًا تخشى ملاقاته وتتجنب أي مناسبة قد تجمعها به.

غير أن اليوم كان عيد ميلاد ابنهم "نادر"، الذي تعلّق بها لدرجة جعلت وجودها في الحفل أمرًا مفروغًا منه. واضطرت لمقابلة "أكرم"، وهي تحرص في كل مرة على أن تتأكد من أنه لا يذكرها، وحين تطمئن لذلك... تتنفس الصعداء.

- **"هو أنت مش ناوية تتجوزي يا حياة .. هتفضلي تقضي حياتك كدة كلها سفر .. مش حابه يكون عندك أطفال "**

كانت هذه جملة رنا

ابتسمت حياة في خجل واضطراب وقالت

- **نصيبي لسة مجاش**

وقع نظر "حياة" في تلك اللحظة على "شيري" وهي تطعم ابنها.

تخيلت، دون إرادة منها، لو أنها مكانها... تطعم طفلها.

تجمّعت الدموع في عينيها، فاستأذنت من الجميع وذهبت إلى الحمام لتبكي سرًا.

مرّت عشر دقائق، أو ربما ربع ساعة، ثم سمعت "حياة" من داخل الحمام صوت استغاثة وصراخ طفل.

خرجت مذعورة، لتجد "نادر" معلقًا على سور الشرفة، يداه بالكاد ممسكتان بالسور، وقدماه تتأرجحان في الهواء.

بدأت "شيري" تصرخ، وحاول الجميع سحب الصبي من ذراعيه، لكن إحدى قدميه كانت قد علقت بأحد الأسلاك المعلقة خارج الشرفة.

كان لا بدّ أن يتمشى أحدهم على السور الخارجي ليفك قدم الصبي.

وللمفاجأة... كانت "حياة" هي من فعلت ذلك تلقائيًا.

تفاجأ الجميع بلياقتها، وبكيفيّة تمكّنها من فك قدم الفتى، ثم سحبه بمساعدة الحاضرين، قبل أن يُسحب جسدها هي.

لكن، أثناء نزولها من على سور الشرفة، خانتها لياقتها... وانزلقت قدمها.

انشغل الجميع بالاطمئنان على الصبي، ولم يلتفت أحد إلى "حياة"، حتى أفاقوا من صدمتهم ليجدوها جالسة على الأرض لا تستطيع الحركة.

ركضت "شيري" نحوها مسرعة، تطمئن عليها وتشكرها، لكنها تفاجأت برد فعل "حياة" غير المتوقع... إذ صرخت بها بعنف:

-"أنت أم مهملة .. أنت اللي زيك ماينفعش تبقى أم .. كنت فين وابنك هيموت كدة"

صُدمت شيري من رد فعل حياة القوي ولم تكن تعلم أن حياة لا تقصدها بهذا الكلام بل هي تتحدث عن نفسها.

******

بدا أن قدم "حياة" قد كُسرت، فلم تعد قادرة على المشي، وكانت الخيارات المتاحة قليلة؛ فإما أن ينقلوها إلى المستشفى بعد طلب "أوبر"، أو ينقلوها إلى منزلها، لكن منزل "حياة" كان بعيدًا، وقد تأخر الوقت.

استقرّ الرأي أخيرًا على أن يُحضِروا طبيبًا لفحص قدمها، يضع لها الجبس، وتبيت تلك الليلة في الغرفة الشاغرة بمنزل "أكرم" و"شيري"، على أن تعود إلى بيتها في اليوم التالي.

تم إحضار الطبيب بالفعل، ووُضِع لها الجبس، ثم نُقلت إلى الغرفة.

اعتذرت بدورها لـ"شيري" عمّا قالته لها سابقًا، وبالرغم من أن "شيري" كانت مذهولة مما حدث، قررت أن تتغاضى عن الموقف وكلمات "حياة".

استعدّت "حياة" للنوم، لكنها سمعت صوت "أكرم" و"شيري" يتشاجران بسبب ما حدث لابنهما.

ورغمًا عنها، أعادها ذلك إلى ذكرى طفلها... وشجارها مع "إيلي".

_ ما بعرف كيف بتعتبري حالك أم يا حياة

_ ايلي .. أنت عارف أن عندي ظروف خاصة

_ اعترفي بالولد يا حياة .. أكيد راح ينصدموا شوي بس بالأخير هادا حفيدهن

_ أنت عشان قضيت نص حياتك في أمريكا، نسيت العرب بيفكروا إزاي

_ بس هيك ما بيمشي الحال .. الولد مشتت كل شوي بتتريكه عند حدا من صحابك وبعدين .. تعرفي بلكي أفضل شيء أنك تعطيه لأبوه طالما مش قادرة تهتمي فيه

_ إيلي .. أوعى أسمعك تقول كدة تاني .. تامر مالوش وجود في حياتي أو حياة إبني

_ تامر خرج من المصحة وكلمني كان بدو يعرف وين ابنه

_ مش عايزاه يعرف حاجة عني أو عن ابنه

يُسمع صوت دقات على الباب

كان الضيف هو "تامر"، وقد اتفق مع "إيلي" على تدبير لقاء يجمعه بـ"حياة".

تغيّر وجه "حياة" كليًا، واعتراها نوبة من الغضب بمجرد رؤيته؛ تذكرت حبها الكبير له، وتذكرت أيضًا تلك الليلة اللعينة التي اغتصبها فيها... ثم علمت لاحقًا أنه كان تحت تأثير المخدرات، وأنه مدمن.

وحين أخبرته بحملها، رفض الاعتراف بالطفل.

دخلت "حياة" وقتها المصحة النفسية، ثم قررت الهرب، والاحتفاظ بالطفل وتربيته بمفردها... وبعد كل هذا، يعود "تامر" ويطلب ابنه!

تامر: فين ابني يا حياة .. دورت عليه كتير

حياة: ابنك مات

تامر: أنا اتغيرت يا حياة وتعالجت ..أنا..

حياة: مانت ياما تعالجت قبل كدة ورجعت تاني

تامر: أنت سفرتيه فين .. هو أكيد مش في مصر .. إيلي مش راضي يقولي غير لو وافقتي أعرف

حياة: ابنك مات .. اعتبره مات

****

استيقظت حياة في اليوم التالي، فوجدت رسالتين من إيلي؛ الأولى يخبرها فيها أن تامر قال له إنه سيسترد ابنه بأي ثمن، والثانية يُعلِمها فيها أن ابنها قد دخل المستشفى مجددًا بعد أن تدهورت حالته.

تذكرت حياة حقيقة مرض ابنها التي كانت تحاول نسيانها. لم تستطع أن تغفر لنفسها أنها أهملته ولم تهتم بالأعراض التي ظهرت عليه، متذرعة بأن كل الأطفال يمرضون.

لم تكن تعلم أن مرضه خبيث. لم تكن تعلم أنها ستعيش تتوقع موته في كل لحظة.

هي لم تكن تريده من البداية، لكن... لماذا يجب أن يموت الآن، بعد أن كبر أمام عينيها؟

ظلت تلك الأفكار تراودها، ولم تشعر بأن دموعها تنهمر على وجنتيها.

سمعت صوت طرقات على الباب. كانت شيري، جاءت لتوقظها.

خرجت من غرفتها بمساعدة شيري، وقد لاحظت الأخيرة أن عيني حياة متورمتان وكأنها كانت تبكي الليل كله.

وعندما سألتها عن السبب، أنكرت حياة الأمر، وأخبرتها بأنها لم تنم جيدًا.

استيقظ الصغير وقد تعلق بحياة بشدة، وأصر على أمه أن تبقي حياة في البيت حتى تُشفى قدمها.

وعرضت شيري عليها ذلك بالفعل، لكنها رفضت، فقد كان بالها مشغولاً بولدها.

أخبرتها شيري أنهم سيدعونها تذهب عقب تناول الطعام معهم.

ذهبت شيري لإعداد الطعام، وبقيت هي وحيدة مع الصغير.

كان لدى الصغير حوض صغير للأسماك، يحبه كثيرًا.

طلب منها أن تنظر إلى سمكاته وتلعب معهم.

وحينها، تذكرت طفلها... عندما كانا معًا على الشاطئ.

_ مامي ..هو الراجل اللي هناك لابس كدة لية ؟

_ He is going to dive under the water

_ أنا كمان حابب اعمل diving زيه

_ ليه

_ عشان أشوف السمك تحت المياه

_ وهتقدر تلبس ال diving tube

_ لا .. مش هابقى محتاجها. . لما هنزل تحت المياة هيطلعلي خياشيم زي السمك وهعيش هناك forever

_ وتسيبني لوحدي

_ نطي في المياه وتعالي عيشي معايا

تذكرت ذلك حياة ثم انفجرت في البكاء المرير .. كان من الصعب إخفاء ذلك على شيري .. سألتها شيري مرة ثانية ما الأمر

كان يجب أن تجد حياة إجابة مقنعة

_ أصل أنا كنت بحب حد ولما فتحت الفيسبوك دلوقت عرفت انه ارتبط بواحدة تانية وسبني

أصبحت شيري في حالة ذهول... من هو هذا الشخص؟ ولماذا لم تخبرهم به من قبل؟ ولماذا تركها؟

لكنها رأت أن صديقتها آثرت الصمت على الحديث، فصمتت هي الأخرى، واكتفت بإظهار الأسف لمعاناتها.

تناولت حياة الطعام، ثم غادرت إلى منزلها مستخدمة تطبيق "أوبر".

****

مرت ثلاثة أشهر الآن...

كانت حياة تتهرب من الجميع، تعتذر عن مقابلة شيري ورنا، وتُقصّر في عملها بشكل ملحوظ، حتى لاحظت شيري أن ابنها لم يعد يحرز أي تقدم.

قررت شيري أن تدعو حياة وأكرم وباقي الأصدقاء في نزهة قصيرة على أحد اليخوت التي يملكها أحد معارفهم.

لبّت حياة الدعوة على مضض، بعد أن استنفدت كل الحجج والأعذار.

لكن ما كان يشغل بالها حقًا طوال تلك الفترة المضطربة من حياتها هو ابنها...

فقد اضطرت إلى إخبار تامر بمكان وجود ابنه، في إحدى المستشفيات في نيويورك، وصرحت له بحقيقة مرضه، وذلك بعد أن هددها بإبلاغ أهلها بأن لها طفلًا يعيش في الخارج.

كانت تعلم أن أيام ابنها معدودة، وكانت تحاول عبثًا أن تجد حجة تقنع بها أهلها للسفر، لكنها لم تفلح.

اجتمع الأصدقاء على متن اليخت.

لاحظت شيري أن حياة لا تتحدث، حاولت مرارًا فتح الأحاديث معها، لكنها لم تجد منها استجابة.

كانت حياة تشعر بغصّة ثقيلة في قلبها...

نظرت نحو أكرم، ثم قالت له:

_ على فكرة احنا اتقابلنا زمان يا دكتور

_ زمان إمتي

_ من عشر سنين .. لما كنا في أمريكا

_ فعلا؟

_ ليك حق ماتفتكرنيش .. أنا كنت أول حالة تشوفها

_ أنت كنتي حالة عندي

_ مش في العيادة .. بس لما كنت بتعمل رسالة الدكتوراه بتاعتك

تغيّر وجه أكرم، ونظر مليًّا إلى حياة.

كانت كلمتها قد أيقظت في ذاكرته شيئًا... كان يتذكر الحالة جيدًا، ويتذكر قصتها، لكنه لم يستطع أن يسترجع ملامح تلك الفتاة... ولا اسمها.

_ أنت ..

لم يستطع إكمال الجملة .. هل كان يجب عليه أن يخبر قصتها .. فجميع الأصدقاء لا يعلمون ما حدث لها

صمتت حياة قليلا ثم قالت

_ كان مثير جدا بالنسبة لي إني أشوفك وأنت إنسان عادي بتمارس حياتك الطبيعية مش وأنت صوت العقل

صمت أكرم، لكن الفضول كاد يقتله... ماذا حدث معها؟ يبدو أنها أجهضت الجنين.

لم تتحدث حياة ثانية، حتى جاءتها رسالة من تامر.

بعدها، ارتسمت على وجهها ملامح الصدمة.

لاحظ الجميع ما بها، ظلوا يحدثونها لكنها لم ترد.

أصبحت عيناها تائهتين، ثم قامت من بينهم فجأة، وتحركت بحركة شبه آلية، والجميع يراقبها بذهول... ثم ألقت نفسها في الماء.

طلبت شيري من أكرم أن تزور حياة في المصحة النفسية بعد محاولتها الانتحار.

كان المشرف على حالة حياة زميلًا لأكرم، فساعده على ترتيب الزيارة.

دخلت شيري الغرفة، فوجدت حياة في حالة جمود، وجهها خالٍ من أي انفعالات تقريبًا.

لم تعرف شيري ماذا تقول... ظلت صامتة أمام حياة، تشعر أن هناك شيئًا يجب أن يُقال، لكنها لم تعرف ما هو.

وفجأة، قطعت حياة الصمت، وفاجأتها بقولها:

_ أنا عارفة أنك بتحتقريني

سارعت شيري بالرد عليها

_ مش صحيح

_ أنا عارفة إني عيشت معاكوا بشخصية تانية .. عارفة إني كنت بحكيلك مشاكل مش موجودة بس أنا كنت بعمل كدة عشان أحمي ابني

شعرت شيري أنه يجب أن تقول شيئًا ما لكنها لم تعرف ماذا تقول ف صمتت متحيرة، وأكملت حياة

_ تعرفي يا شيري .. أية أكتر حاجة متضايقني مش أن ابني مات بس لأنه اتعذب قبل ما يموت .. أنا قبلت فكرة موته بس مش قادرة أقبل كان بيتعذب قبل ما يموت .. كان نفسي في موت رحيم له

حنيها دمعت شيري وأدركت مدى حزن صديقتها وحاولت أن تقول جمل من هنا وهناك لمواساة صديقتها لكن حياة لم تكن تسمعها إليها ثم طلبت منها طلب غريب

_ شيري هديكي رقم تامر قوليله إني مش عايزة ابني يتدفن عادي. . أنا عايزة يدفن في المياه

دهشت شيري من طلب حياة ولكن وعدتها بتنفيذه

لم تكن شيري تعلم أن ابن حياة كان مصابًا بسرطان الرئة، وأن حياة لا تزال تتذكر كلماته جيدًا:

"لما هنزل تحت الميّة، هيطلعلي خياشيم زي السمك، وهعيش هناك... forever".

في تلك اللحظة، كانت حياة مؤمنة تمامًا أن ابنها سيتحوّل إلى سمكة، وأنه سيُصبح قادرًا على التنفس تحت الماء ويعيش هناك إلى الأبد.

كانت تنظر إلى أي مجرى مائي، وتعتقد أنه يحيا هناك... للأبد.

الحكاية الخامسة: الغمامة السوداء

أشرق صباح يوم جديد، وسُمِع صوت المنبّه يخترق أذنيّ.

أذعنت له طائعة، محاولة فتح عينيّ، وكالعادة شعرت بشيء ثقيل وخفيّ فوق صدري.

قاومت بقايا النوم، واستيقظت.

بدأت أرتدي ملابسي استعدادًا للذهاب إلى عملي، ثم وقفت أمام المرآة لأضبط هندامي.

كنت لا أزال أشعر بذلك الثقل الغريب فوق صدري.

وضعت يديّ عليه لأتحسّس ما الذي يُشعرني بهذا الضغط، في البداية لم أجد شيئًا، فضغطت أكثر...

عندها بدأ الألم... ألم حاد.

لم أكن أعرف ما هو، فحاولت أن أتعرف عليه وأنا أسحب ما أشعر به من صدري.

وإذ بي أجد سنًّا يشبه سنّ السكين.

ظللت أسحبه من صدري، إلى أن رأيت سكينًا كاملًا يسكن داخلي.

حاولت مرارًا وتكرارًا أن أخرجه، لكنني لم أستطع.

نظرت إلى الساعة في هاتفي، فوجدت أنني قد تأخرت على عملي،

فتركت السكين في مكانها، مدركة أنه لا سبيل لإخراجها.

أغلقت أزرار قميصي لإخفائها عن الأعين، ثم ارتديت سترتي، وخرجت من بيتي متجهة إلى عملي.

.....

حين خرجت من أمام منزلي، اتجهت مسرعة إلى الشارع الرئيسي، لا أفكر سوى في الوصول إلى الرصيف المقابل.

لم أتمكن حينها من سماع صوت صافرة الحافلة خلفي، حتى التفتُّ...

فوجدتها خلفي تمامًا، إذ لم يكن يفصل بيني وبينها سوى بضعة سنتيمترات قليلة.

****

لكن سائق الحافلة تمكّن من تفادي الاصطدام بي في اللحظات الأخيرة.

حاولت أن ألتقط أنفاسي لأستوعب ما حدث. فحصت نفسي... أبدو بخير.

ثم واصلت المشي إلى الرصيف الآخر، وأخذت سيارتي، وانطلقت إلى مكان عملي.

****

دخلتُ العمارة التي يقع بها المكتب الذي أعمل فيه، وتوجهت مباشرة إلى المصعد.

ركبته، وكانت الأمور تسير بشكل طبيعي إلى حدٍّ ما...

فجأة، اهتزّ هاتفي في يدي.

نظرت إليه، ولم أجد أي رسالة، عكس ما توقّعت،

لكن حين وقع نظري على التقويم، رأيت تاريخ اليوم، وكان مكتوبًا تحته: "ذكرى وفاتك."

لم أصدّق ما رأيت.

حاولت أن أنظر مرةً أخرى...

وإذ بي فجأة، أتقلّب على وجهي داخل المصعد.

صرخت بأعلى صوتي، وتسارعت ضربات قلبي إلى أقصاها،

شعرت بجفاف شديد في حلقي...

ثم سمعت صوتًا يأتي من الأسفل.

_متخافيش يا أستاذة، هنعرف نطلعك من الأسانسير

كان الصوت صوت حارس العقار.

حاولت أن أستند إلى أحد جدران المصعد، بينما يتردد في رأسي ما رأيت في التقويم:

هل سأموت هنا؟

داخل هذا المكان الصغير والضيق، مختنقة بنقص الأكسجين؟

هل سيكون اليوم حقًا... ذكرى وفاتي؟

لم يُخرجني من دوامة أفكاري سوى صوت حارس العقار، وهو يفتح باب المصعد ويُخرجني منه قائلاً:

_انكتبلك عمر جديد يا أستاذة، الأسانسير كان هايقع

****

خرجت من المصعد وأنا أحاول تنظيم أنفاسي...

لقد كنت على بُعد ثوانٍ من الموت.

دخلت المكتب بعد محاولات لتهدئة نفسي، أقنعتُ نفسي أن ما مررتُ به لم يكن سوى كابوس وانتهى،

وأن ما رأيته على هاتفي لم يكن إلا هلاوس بصرية، نتيجة الرعب الذي شعرت به وأنا عالقة في المصعد.

جلست على مكتبي، طلبت قهوتي الصباحية المعتادة، وبدأت العمل.

رنّ جرس الهاتف.

نظرت إليه، فوجدت أن الرقم المتصل هو من المعمل الذي ذهبت إليه منذ أسبوع.

بالتأكيد سيتصلون لإبلاغي بنتيجة التحاليل.

أجبتُ على المكالمة.

جاءني صوت فتاة على الطرف الآخر، بصوت جاد:

"أنا آسفة... لكننا وجدنا في نتائج تحاليلك ما يشير إلى إصابتك بأحد الأورام الخبيثة."

صمتُّ ثواني من الصدمة.

ثم أغلقت الهاتف، وبدأت أبحث عن اسم طبيبي للاتصال به.

وأثناء بحثي، وقعت عيني مجددًا على تقويم الهاتف...

فوجدت، أسفل التاريخ، العبارة ذاتها:

"اليوم يوافق ذكرى وفاتك."

لم أستطع أن أتمالك أعصابي... إنه الموت.

الموت الذي يلاحقني منذ الصباح.

زاد توتري إلى حدٍ لا يُحتمل. كيف لي أن أهرب من الموت؟

لم أكن في حالة تسمح لي بالعمل، لذا فكرت في أن أغادر المكتب مبكرًا هذا اليوم.

لم أُجهد نفسي في اختلاق الأعذار، فمظهري وحده—وجهي المتيبس من الخوف، وأنفاسي المتلاحقة—كان كافيًا ليشرح حالتي الحرجة.

أذن لي المدير بالمغادرة.

خرجت مسرعة، وأنا أحاول أن أتفادى الموت... الذي قد ألتقيه في أي لحظة. كنت أمشي في الطريق، أتلفت حولي في كل اتجاه...

من أين سيأتي الموت؟

وقعت عيني على لافتة أحد المطاعم التي اعتدتُ التردد عليها.

ربما طعامهم غير صالح... ربما يبيعون لحمًا فاسدًا.

لن آكل منه مجددًا. ربما يكون هذا سبب موتي!

أخرجت مفاتيح سيارتي ونظرت إليها.

ربما، وأنا أقود، أشرُد قليلًا بما يحدث معي، ودون أن أنتبه... تنقلب بي السيارة، وأموت في حادثة سير

بينما أنا أفكر... كيف أتفادى الموت.

لا... لا، لن أركب سيارتي اليوم.

سأركب بدلًا من ذلك وسيلة نقل عام.

أخيرًا، وصلت إلى بيتي. أغلقت الأبواب بإحكام.

ربما يأتي لصٌّ... يسرقني، ثم يقتلني. فأموت مقتولة.

لا أدري ماذا سيحدث بعد الآن...

مضت ساعتان... وأنا ما زلت بخير.

لا شيء بي سوى هذا الورم الذي اكتشفوه.

نظرت إلى نفسي في المرآة، محاوِلة أن أتخيل ما الذي سيفعله هذا الورم بجسدي الضعيف.

هل سيدمّر أجهزتي الداخلية؟

هل سأحتاج لإجراء عملية يُقص فيها جزء مني... ليبقى الباقي قادرًا على العيش؟

هل سأحتاج إلى جرعات كيميائية تحرق المرض، وتحرقني معه؟

هل سأنهض بعدها، أم يخمد جسدي تمامًا؟

يا الله... ما هذه الأفكار.

رنّ هاتفي فجأة،

كان المتصل هو خطيبي، أحمد.

بالتأكيد يرغب في الاطمئنان عليّ، بعدما علم أنني غادرت العمل مبكرًا.

أجبت على اتصاله.

أخبرني أنه يريد أن يراني، فقط ليطمئن.

لكن... كيف؟

هل أخرج من المنزل، من ملاذي الآمن؟

ترددت قليلًا، فكرت لدقائق، ثم وافقت على طلبه.

واتفقنا أن نخرج سويًّا هذا المساء

****

خرجت معه، وبينما كنا سويًا، كنت أُمعن النظر في الطريق من كل جانب، لربما نصطدم بإحدى الشاحنات المارة.

كان يحدثني بكلمات رومانسية، لكنني لم أكن أسمعه.

كنت شاردة... أفكر في الخبر الذي ستنشره الصحف في صفحة الحوادث:

"مصرع خطيبين في حادث مأساوي."

أو ما سيكتبه أصدقاؤنا على صفحات "فيسبوك" لنعينا.

أخيرًا، وصلنا إلى أحد المطاعم التي اختارها خطيبي.

جلسنا سويًا في انتظار الطعام.

فجأة، سمعت جلبة لم أفهم سببها.

التفتُّ خلفي... فرأيت أحد الضباط يقف وسط المكان.

لم أفهم سبب مجيئه، ولا سبب الذعر والانهيار الذي أصاب الجميع في المطعم،

حتى عرفت أن المكان يحتوي على قنبلة...

تركها أحد الإرهابيين في هذا الموقع السياحي

كان الجميع خائفًا، مذعورًا.

نظرت إلى أحمد، اقتربت منه، واحتضنني كي يحميني مما يحدث.

حاولت تهدئة نفسي.

تمسكت به جيدًا، وخبأت نفسي داخل معطفه، ونظرت إلى عينيه.

ابتسم لي كي يُطمئنني.

لكنني رأيته يُدخل يده داخل قميصه...

لم أفهم ماذا يفعل، حتى رأيت المسدس.

كان يُخرجه بهدوء، ودون أن يشعر أحد، مستغلًا الفوضى من حولنا...

ثم وجّه المسدس نحو رأسي.

****

لا، لن أخرج مع أحمد.

اعتذرت له.

ربما لم يحبّني أحمد يومًا... لماذا يريد الزواج مني؟

ربما في زواجنا سأجد حتفي.

ربما يقتلني أحمد...

يقتلني ببرودة،

أو بخيانته لي مع امرأة أخرى،

أو حين يسجنني داخل المنزل،

أو يحرمني من عملي،

أو يُعنّفني،

أو يؤذيني أحد من أهله.

والدته لا تحبني،

وأبوه صارم لا يبتسم.

أو ربما أموت أثناء ولادة طفلنا الأول،

أو أفقد أحد أطفالي وأحيا في تعاسة أبدية،

أو أكتشف أنني لا أنجب أصلًا.

لا... لا، يبدو أن الزواج ليس آمنًا على الإطلاق.

سأنهي علاقتي به... فورًا.

.....

سمعتُ قرعًا على باب منزلي، تزامن مع وصول رسالة على هاتفي من صديقتي، تُخبرني فيها أنها أمام الباب، جاءت لتطمئن عليّ بعدما غادرت العمل مبكرًا.

فتحت الباب، فوجدت رغد، صديقتي المقرّبة، تقف هناك بابتسامتها المعتادة.

كانت تحمل في يدها كيسًا من الطعام، وقالت برقة:

_ أكيد كالعادة نسيتِ تاكلي حاجة طول اليوم وعلى لحم بطنك، جيبلك الاكل اللي بتحبيه

نظرت إليها...

كنتُ بأمسّ الحاجة إلى وجود صديقتي المقرّبة بجانبي، كما كنت بحاجة إلى الطعام.

جلسنا نأكل معًا، وشيء داخلي يتململ...

كنت أرغب بشدة أن أخبرها بكل شيء.

ما حدث معي، وما أشاهده في تقويم هاتفي منذ الصباح.

نظرت إليها، وبين لقمة وأخرى، شعرت أن الكلمات تتجمع عند طرف لساني...

_رغد.. في حاجة غريبة حصلت معايا، انا شوفت ان النهاردة هيكون اليوم اللي هموت فيه

اتسعت حدقة عيناها غير مصدقة

_بتقولي إية، ازاي الكلام ده، يعني شوفتي فين ده

_ في الموبايل بتاعي، استني هوريكي

ذهبت لإحضار الهاتف وفتحت التقويم وأعطته لها وقلت

_مكتوب إني هموت النهاردة، النهاردة هايبقى ذكرى وفاتي، شوفي كدة

أجابت بمنتهى الثبات ونظرات عينيها مثبتة عليا

_ مانت، هتموتي النهاردة

ذُعرت، ماذا حدث، لماذا تخبرني رغد بهذا التأكيد إني سأموت اليوم، أكملت حديثها

_ عشان حطيتلك سم في الاكل اللي جيبتهولك

انهرت تمامًا...

كيف لرغد، صديقتي المقرّبة، أن تفعل هذا بي؟

كيف تؤذيني هكذا؟

رأيت على وجهها ابتسامة... لكنها لم تكن مطمئنة، بل بدت كأنها شماتة.

هل كانت تغار مني؟

لأني ترفّعت في عملي قبلها؟

أم لأن أحمد اختارني أنا وخطبني دونها؟

هل كانت تحب أحمد؟

هل هما على علاقة؟

هل خانني أحمد معها؟

قبل أن أطرح كل هذه الأسئلة... شعرت أن شيئًا ما يحدث داخلي.

مفعول السم بدأ يظهر.

شعرت بخوار مفاجئ في جسدي، وألم حاد في معدتي.

هل سأموت بهذه الطريقة؟

بهذه النهاية؟

على يد صديقتي... أقرب الناس إليّ؟

****

لا، لن أفتح الباب لها.

سأخبرها بأنني مريضة ولست قادرة على استضافة أحد في بيتي.

لعلها تذهب، وبالفعل... ذهبت.

فتنفّست الصعداء.

****

بقيت وحيدة، لم أخرج من منزلي لأيام،

وفي كل يوم كنت أرى في التقويم أنه "الذكرى الموافقة لوفاتي".

الموت يُحيط بي من كل جانب.

أين أهرب منه؟ وإلى متى سأهرب؟

إنني أحارب عدوًّا أعلم تمامًا أنه سيربحني في النهاية،

فما الداعي لهذه الحرب إذًا؟

السكين... إنه ما يزال داخل قلبي،

قلبي الذي يئن ويتألم،

خاصة حين يأتي المساء، فأشعر أن ثِقل الحياة كلّه يحمله صدري المسكين.

لا أحد يستطيع أن يُنقذني.

أرى أحبّائي من بعيد،

تُخبرني أعينهم أنهم يريدون مساعدتي،

لكن مَن له سلطان على الموت؟

إننا نموت قبل أن نموت.

نموت بخيانة صديق... أو حبيب،

نموت بخسارة... أو بفقد،

يموت جسدنا كل يوم، ويكبر قليلًا... حتى يموت فعليًا.

استمع الطبيب لكلماتي بصمت وهو يشخّص حالتي،

ثم كتب لي وصفته الطبية، وطلب أن يراني بعد شهر.

خرجت من عنده وأنا أفكّر في كلامه لي.

لقد شخّص حالتي: وسواس قهري... وسواس الموت، مما أدى إلى اكتئاب.

وأخبرني أيضًا أن السبب قد يكون وراثيًا،

حيث لديّ تاريخ مرضي في العائلة.

إذًا، فقد وُلدتُ وفي داخلي استعدادٌ لأن أرى الحياة من جانبها السوداوي أكثر من غيري،

وأن عينيّ ترى الألم أكثر مما ترى السعادة،

وقلبي يميل للحزن أكثر من الفرح.

هذه أنا.

عدتُ إلى منزلي، وتناولت دوائي.

حاولت تطبيق تقنية التنفس.

استلقيتُ على فراشي وبدأت أتنفس بوعي.

يجب أن يقف طوفان أفكاري.

تذكرت ما تعلّمتُه عن "اليقظة".

بدأت أستخدم حواسيّ حتى يتوقف عقلي.

بدأت أشمّ رائحة جميلة تنبعث من زجاجة عطري.

ثم ركّزت أكثر... فسمعت صوت العصافير،

قادمًا من الأشجار خلف نافذتي.

كانت المرة الأولى التي أسمع فيها زقزقة العصافير!

لقد كانت بجانبي طوال الوقت،

لكنني لم أكن أستطيع أن أسمعها.

فأنا لم أكن أسمع سوى ضوضاء عقلي.

وحين خفّت تلك الضوضاء...

بدأتُ أسمع العالم من حولي.

وانقشعت الغمامة السوداء من عيني.

بوجه مستاء وساخر نظرت أمي لي وأنا أرتدي ملابسي قائلة

_ أخصائية نفسية في مصلحة السجون، هي دي آخرتها

رفعت شعري بيدي وأنا أجيبها

_ ماما.. ده شغلي وأنا بحبه

_ وطبعاً الشغلانة دي مافيهاش حد ممكن يشوفك، بتتعاملي طول الوقت مع سجينات

زفرت بضيق وأنا أضع حاجتي داخل حقيبتي واتجهت إلى باب الشقة

_ بعد إذنك يا ماما هتأخر

لحقتني أمي إلى الباب وأوصتني وصيتها الأخيرة

_ ماتنستيش موضوع عادل يا منال.. فكري تاني

لقد سئمتُ طريقة أمي، تُشعرني أنني في خطر، في طريقي إلى العنوسة، ويجب أن أتزوج سريعًا حتى أنقذ نفسي من هذا المصير.

وصلتُ إلى عملي، تناولتُ ملف إحدى الحالات التي سأعمل معها.

الاسم: سامية بهواني،

العمر: خمسة وثلاثون عامًا.

شاركت مع زوجها في عمليات نصب، وهي مدانة أيضًا في جرائم قتل بدافع السرقة بالاشتراك معه. وقد قالت في التحقيقات إنها لم تكن ترغب في ارتكاب هذه الجرائم، لكن زوجها أجبرها على الاشتراك معه حتى لا تقوم بالتبليغ عنه.

كانت هذه أولى حالاتي لهذا اليوم.

دخلت سامية المكتب، تأملتها: ملامح حادة، جسد نحيل، قامة متوسطة، وشعر أشعث. وكعادتي، كنت أحاول أن أتخيل: كيف سيكون شكلها إن كانت من طبقة اجتماعية أخرى غير طبقتها؟

وجدت أنها تملك وجهًا جميلًا إلى حدٍّ ما، ومع بعض مساحيق التجميل والاهتمام بشعرها، سيمنحها ذلك مظهرًا أجمل، إلى جانب ارتداء ملابس جيدة.

حاولت الخروج من تخيلاتي التي لن تُغير الواقع، وسألتها

_ سامية أنتِ عارفة أنتِ هنا لية؟!

كانت تنظر إلى الأرض منذ أن دخلت إلى المكتب ثم رفعت نظرها نحو وجهي وقالت بصوت حاد مثل ملامحها

_ عارفة

ثم أعطتني نظرة حادة لم أفهمها لكني فهمت بعدها أن بها بعض التوسل حين قالت لي

_ أنا عارفة أنى هتعدم.. بس أنى مش عايزاه نموت

قالت جملتها الأخيرة وجسدها يتجه نحوي كأنها تستنجد بي من الموت، لاحظت من لهجتها أنها إسكندرانية فسألتها

_ هو انتِ من إسكندرية اصلًا يا سامية

_ أيوة.. بس هربت من أهلي لما تعبت من حياتي معاهم وجيت على مصر.. واتجوزت المدعوق جوزي اللي خلاني اعمل الجرايم دي غصبًا عني وأبقى قدامك دلوقت

_ وإية اللي حصل بعد كدة خلاكي تعملي الجرايم دي غصبًا عنك

_هيفرق في اية اللي حصل، انتِ أكيد مكتوب قدامك الحاجات اللي عملتها

_ بس أنا عايزة اسمع منك انتِ

_ أحكيلك اية.. في الأول أتضحك عليا، ماكنتش اعرف أن جوزي نصاب ولا كنت أقدر اشتكي لأهلي اللي هربت منهم، ولما عرفت كان لازم أساعده عشان نعيش.. يمكن اللي زيك ماتفهمش يعني أية جوع يخليكي تشتغلي في أي حاجة لأجل ما تعيشي

_ واية اللي وصلكوا للقتل

تغير وجه سامية وتغيرت معه نبرة صوتها وحركة جسدها بانفعال قائلة

_ أنا ماكنتش عايزة نقتل حد، حاولت أكلمه كتير لكن مرعي اللي في دماغه في دماغه، لغاية ما دخل يومها عليا، جابلي واحدة ماعرفش كان عامل فيها أية، وقتلها قدامي وقالي لو اتكلمت هيبلغ اني شريكته، خوفت وارتعبت وسكت وبعدين

ماتت راح مرعي سرق اللي معاها وبعدين نزلنا نرميها في النيل وكان بيخليني امثل معاه واحنا خارجين نرمي الجتة، مرة يخليني امثل اني حامل وبولد و مرة رايحين ندفن حد وانا اقعد اولول وفضل الحال كدة

_ قولتي في التحقيقات انك ماكنتيش موافقة تعملي كدة

_ لما تشوفي حد قلبه قسي وقتل قدامك واحدة، مش هيفرق معاه موتك أنت كمان، هددني انه هيبلغ اني شريكته في الجريمة لو اتكلمت، وهو ماكنش هيسيبني بعد اللي شوفته، ده غير عيشتنا كانت ضنك وكنا محتاجين فلوس، وهو بعد كل مرة كان بيديني نصيبي من الفلوس وكنت بعيش لي يومين

لم أستطع أن أستمع لها أكثر من ذلك فقد انتهى الوقت المحدد لها واعتذرت لها لعدم قدرتي على إكمال حديثنا وأننا سوف نلتقي مجدداً، لكنها فجاءتني حين أمسكت ذراعي وقالت لي

_ أنى خايفة.. مش عايزة اموت.. امبارح شوفت جثة ناشفة وعضمها متيبس ولما بصيت لها لاقيتها انا، افتكرت وقتها واحدة من الجثث اللي كنا بتاويها انا وجوزي نشفت مننا لما اتأخرنا ع بال ما نتصرف فيها وجه في بالي أني هابقى شبهها، اني مش عايزه نبقى زيها

لم أتحمّل بشاعة تخيُّلها، وفكّرت في قول كلمات مناسبة لها، ولكن لم أتمكن من إيجاد ردٍّ مناسب، حتى جاءت إحدى السجّانات وأخذتها من أمامي.

بعد انتهاء عملي، وفي طريقي إلى منزلي، كنت أفكّر في سامية، بل أفكّر في مهنتي كلها. حين تسلّمت عملي، لم أفكّر سوى في المرتب الذي سأتقاضاه، وأنني نجحت في الحصول على عمل وأنقذت نفسي من البطالة.

لم أتصوّر وقتها أن هناك أشخاصًا سيتعلّقون بالكلمات التي ستخرج من فمي، ويربطون آخر أمل لهم في الحياة بي.

****

راجعتُ مرة أخرى ملف سامية؛ مجموعة من جرائم القتل المتسلسلة توحي بأن زوج سامية سايكوباتيّ يستمتع بالقتل. لكن ماذا عن سامية نفسها؟ قالت إن زوجها أجبرها على الاشتراك معه في تلك الجرائم، حيث كانت تساعده في تهيئة الظروف المواتية للجريمة، وتحديد الموعد المناسب لارتكابها، وذلك بما يسمح لها به عملها كخادمة في بيوت المجني عليهن، وأيضًا في التخلّص من جثثهن.

وقد اختاروا الضحايا من الإناث حتى تسهل عملية قتلهم.

فهل استطاعت سامية أن تحتفظ ببعض من إنسانيتها وتعاطفها مع الضحايا؟

كنت أفكّر في ذلك حين دخلت سامية عندي. نظرتُ إليها، كان وجهها شاحبًا أكثر من المرة السابقة، ويبدو أنها لا تنام جيدًا، فسألتها...

_ عاملة إيه النهاردة

_ مابقتش عارفة أنام، خايفة أموت، بقعد أفكر هيحصل إيه لما أموت، فكرت في الستات اللي كنا بنموتهم، كان بيشوفوا إيه لما يموتوا، إيه أول حاجة شافوها في العالم التاني، لما روحهم فارقت

_ أنت كنتي بتحسي بأية يا سامية وقت موت الستات دي

تغير وجه سامية بدا لي أنها تحاول أن تتذكر شيء بعيد مضى

_ أول واحدة، هو جابها عندي، جتتي اتلبشت ونفسي اتكتم، عملت كل اللي قالي عليه وانا عمالة اعيط، بعدها اداني نصيبي من الفلوس، كنت أول مرة امسك الفلوس دي كلها، بس ماكنتش عايزاها ولا فرحانة بيها قعدت أتحايل عليه كتير أنى ماليش دعوة بالي هيعمله لكنه قالي لو سيبته هيبلغ عني أو يقتلني، أنا حتى فكرت اهرب بس مالقتش حد أروح له، أكيد ربنا عارف أني انجريت للسكة دي غصبًا، مش كدة.. عارف أني عملت كدة غصبًا عني

صمت.. كنت أرغب في معرفة المزيد فسألتها

_ طب وبعدين، باقي الستات اللي اتقتلت

صمتت بعض الشيء، شعرت أنها تحاول أن تُخفي شيئًا لكنها أجابت

_ هقولك الحق، مش هيفيد بحاجة كدبي عليك، في الأول كنت بعمل كدة كارهه ومجبرة لكن بعدين، عاجبني مسكة القرش في أيدي، ماكنتش عايزة افضل خدامة في البيوت، كان نفسي ابقى هانم، ماهو طالما هنتحاسب في الآخرة يبقى أتبسط دلوقت، مع الوقت لما كنا نموت واحدة ومحدش يعرف يوصللنا كملنا طريقنا، وانا اللي كنت بشرحله اللي هنسرقها من الستات اللي بنضف عندهم، بالذات الستات اللي كانت متفرعنة وبتذلني

_ يعني كمان كنتي بتنقمي منهم

_ أيوة بنتقم، أشمعنا هما يبقى عندهم كل حاجة ويتولدوا في بؤهم معلقة دهب وواحدة تتولد ماتلقيش حاجة خالص، اشمعنا اشوف كل يوم واحدة هانم منهم وفاكرة أنها اتخلقت من عجينة واحنا من عجينة، طبعًا أنت مش عاجبك الكلام وشايفني واحدة طماعة وحسودة، ماهو إحنا مش قد المقام، أنت بتيجي هنا شغلك وتلاقيكي قرفانة من المناظر اللي زينا ماحنا قتالين قتلة

نظرتْ إليّ بحدّة في عينيّ وهي تقول جملها الأخيرة، وتحوّلت فجأة للهجوم عليّ بعد أن كانت تستنجد بي سابقًا.

يبدو أنها أسقطت عليّ ما كانت تراه من نظرات الاستعلاء لدى من عملتْ معهم.

أكملتُ حديثي إليها.

_ لا أبدًا بالعكس.. أنا مش هحكم عليكي أنا هنا عشان أساعدك، لو حابة تكملي كلام

بنظرات كلها تحدٍّ لي شخصيًّا، قالت وهي ترفع أحد حاجبيها.

_ حابة أكمل وأزيدك من الشعر بيت أنا أصلًا في ستات من اللي قتلناهم كنت حابة أموتهم، آخر واحدة وجوزي برة بيخلص عليها، كنت أنا موجودة جوة اوضتها بلبس هدومها وبحط من العطر بتاعها وهي بتنازع برة، أصلها كانت فرساني أوي، منأنتكة وشايفة نفسها عليا، بعد ما خلص مرعي، أخدنا اللي عايزنه من فلوس ودهب وانا خدت اللي عيني عليه من هدومها وحاجتها

كانت هذه المرة الأولى التي أرى فيها هذه الوحشية والغل داخل سامية، فقد نظرتُ إليها منذ البداية كضحية لزوجها، كما قدّمت نفسها لي.

انتهى وقتي معها في ذلك اليوم، فأُخِذت من أمامي، وأنا أشعر بالحيرة من أمرها..

****

تقابلتُ أنا وسامية مرةً أخرى، لكن هذه المرة كانت مختلفة؛ فقد تم النطق بالحكم عليها في قضيتها بالإعدام، حيث رأى القاضي أنها استحقت عقوبة الفاعل الأصلي.

هي من طلبت أن تراني.

جاءت إلى مكتبي وخطواتها متثاقلة، ناظرةً إلى الأرض.

تردّدتُ في كيفيّة فتح الحديث معها، حتى قالت هي...

_ ده مش عدل

_ قصدك الحكم الصدر في قضيتك

_ كل حاجة مش عدل، دلوقت هتعدم وأموت وربنا هيحاسبني بذنب الستات اللي ماتت، بس لو أنا لو كنت اتولدت في مكان تاني بدل هانم من الهوانم دول، ماكنتش هعمل كدة، هو العدل اني أتعذب دنيا وكمان آخره

_ بس ربنا أدانا حرية الاختيار، دي ظروف حياتك وظروف حياة جوزك، صحيح كانت صعبة بس كان قدامكوا اختيار ماتعملوش كدة، ياما ناس ظروفها صعبة ماقتلتش ولا اتهجمت على بيوت حد

أجابتني وهي في حالة انهيار كامل ودموعها تنهمل على وجهها

_ بس ده مش عدل، أنا لما هموت وأتحاسب هقول لربنا انه هو السبب، هو اللي خلق الإنسان بيجوع وبيجري ورا أي حاجة تسد جوعه، أنت أكيد مش فاهمة، تلاقيكي ماجربتبيش الجوع زي، بس قوليلي لو كنتي بتموتي من الجوع وقدامك رغيف مش معاكي حقه، هتعملي أية مش هتاكليه، مش هتحسي دي سرقة وقتها عشان هاتبقي عايزة تعيشي، أهو أنا كنت عايزة أعيش

كان سؤال سامية أحد المعضلات الفلسفية التي لم يتمّ حلّها بشكل نهائي، وكان كلامها يغلب عليه الغضب من الإله الذي، في نظرها، لم يُوفّر لها سُبل الحياة، ومع ذلك سيحاسبها على ما فعلت.

كما أنها لم تُحمّل نفسها أيّ مسؤولية.

يا الله، كيف للإنسان أن يُبرّئ نفسه ممّا فعل، ويلقي بالاتهام على الإله أو على ظروف الحياة؟

أكملتُ حديثها

_ تفتكري حاجة وتلاتين سنة اللي عيشتهم في الأرض دول، يستاهلوا أتعاقب عليهم للأبد

_ بس أنت لية بتتكلمي كأنك خلاص مُتِ ورايحة جهنم، أنت لسة عايشة وقدامك فرصة تتوبي مدام أنت لسة بتتنفسي

_ تفتكري ممكن واحدة زي تتوب وربنا يغفر لها، ده أنا سرقت وقتلت، في الأول كان غصباً عني آه، لكن بعدين اتعودت على السرقة والقتل

_ ليه لا.. ربنا فاتح طريقه لأي حد، طالما لسة عايشة، اطلبي من ربنا يغفر لك، أنا ماعرفش ربنا هيحاسبك ازاي على اللي عملتيه، لكن اعرف انه بيسمعنا وفاتحلنا باب التوبة دايمًا

لم يكن بوسعي أن أُخفّف من إنسانٍ علِم أنه سيموت، ويعلم أنه ذاهب إلى الجحيم لما فعله.

حتى جاءتني هذه الفكرة: لماذا لا تُصلّي سامية في آخر أيامها وتطلب المغفرة من الله؟

كانت أحكام الإعدام تستغرق وقتًا طويلًا حتى تُنفّذ، وهو ما كان أكثر صعوبةً على النفس البشرية، إذ ينتظر المحكوم عليه داخل زنزانته تنفيذ الحكم في أي لحظة، أي أنه يعيش على حافة الموت طوال الوقت.

في ذلك الوقت، طلبتُ من سامية أن تُصلّي. كنتُ أرغب أيضًا في زيارتها لإجراء جلسات معها قبل تنفيذ الحكم، فطلبتُ هذا من إدارة السجن، ورغم صعوبة طلبي، فقد قابلتها مرة واحدة قبل تنفيذ الحكم عليها.

وهذه كانت صلوات سامية قبل أن تُعدم، بعد أن أعدتُ صياغتها واحتفظتُ بها لنفسي:

"أعلم أنك عادل، وأعلم أني مجرمة، وقد استحققتُ كل عقاب عادل منك.

ليس لي مكان أهرب فيه من وجهك.

هل لي أن أطلب أن تسطع برحمتك عليّ؟ كما يسطع القليل من الضوء من نافذة زنزانتي على وجهي كل يوم؟

إني أقلّ من أن أطلب غفرانًا لنفسي. لقد تجبّرتُ كثيرًا، وأصبح قلبي يابسًا مثل جثث ضحاياي.

تماديتُ في شري وآثامي، نسيتُ أنك موجود، ولم يهُمّني سوى بطني وخبزي، والتنعم في ملذات الدنيا، حتى شعرت أن الموت كذبة... وها أنا الآن أقترب منه.

لماذا يا رب خلقتني؟

صوتٌ بداخلي يسألني: لماذا خُلقتُ؟

هل خُلقتَني من أسرة فقيرة لأكبر وأُخطئ فتُحاسبني؟

ليتني لم أُولد أصلًا.

ليت هذا العذاب الذي عِشته، وجعلتُ آخرين يعيشونه، لم يكن.

سامحني يا الله، إن كنتُ ألومك على شرٍّ فعلته.

فإن كنتُ قد عشتُ في الإثم، فأنا أودّ أن أموت بشرف.

إنك عادل، ولك معي حساب، وليس لي دفاع عن نفسي سوى طلبي رحمتك، وإقراري بذنبي في اللحظات الأخيرة من عمري، وطلب الصفح عن روحي.

إنني لستُ سوى صرخة تئن في الفراغ،

روح منسيّة في الفضاء، أنظر إلى بقعة الضوء الصغيرة المنبعثة من النافذة، وأسمع صوت صرخات أرواح ستُزهق، وقلبي يصرخ إليك يا الله أن ترحمه مما صنعت يداه.

قد فنى عمري في أفعال الشر، ولم تبقَ لي سوى لحظاته الأخيرة... تطلب الصفح منك

****

مرّت أيام وأيام على سامية، وهي تجلس في زنزانتها، تُثبّت عينيها على الضوء الخافت الداخل في صمت... حتى أُعدِمت.

لم يكن هناك شيء تتذكره سوى آخر كلمات قالتها لها منال، والتي استشهدت فيها بإحدى آيات سفر المزامير في الكتاب المقدس، لكونها مسيحية، إذ قالت لسامية:

- **"أنتِ عارفة يا سامية، أنتِ بتقولي ما لكِيش عين تدّعي ربنا علشان اللي عملتيه...**

بس هقولك على آية من الإنجيل بتقول: أن في واحد زمان كان خايف يصلي زيك كدة لانه عمل غلطات كتير واتمسك بيها لكن لما صلى ربنا استجاب له

ثم تلت منال المقطع الكامل من مزمور 66 (آيات 16–20):

"هَلُمَّ اسْمَعُوا فَأُخْبِرَكُمْ يَا كُلَّ الْخَائِفِينَ اللهَ بِمَا صَنَعَ لِنَفْسِي.

صَرَخْتُ إِلَيْهِ بِفَمِي، وَتَبْجِيلٌ عَلَى لِسَانِي.

إِنْ رَاعَيْتُ إِثْمًا فِي قَلْبِي لاَ يَسْتَمِعُ لِيَ الرَّبُّ.

لَكِنْ قَدْ سَمِعَ اللهُ. أَصْغَى إِلَى صَوْتِ صَلاَتِي.

مُبَارَكٌ اللهُ، الَّذِي لَمْ يُبْعِدْ صَلاَتِي وَلاَ رَحْمَتَهُ عَنِّي.".

الحكاية السابعة: المحاولة

نحن الآن في عام ألفين وثلاثمائة وخمسين. لا يهم مقدار التطور التكنولوجي الذي حدث في هذه الفترة، فكل ما يهم في قصتنا هو التطور في الجانب الفكري والإنساني. لقد تغيّر العالم كثيرًا، وأصبح غالبية الناس من الملاحدة أو اللا أدريين أو اللا دينيين، ولم يعودوا بحاجة إلى إخفاء أنفسهم. هذا ما يحدث الآن في الشرق الأوسط. لا يزال هناك أناس يدينون بأديان، وخاصة الأديان الإبراهيمية، لكنهم أصبحوا في قلب العالم الحديث، وغالبًا ما يُنظر إليهم كأشخاص رجعيين، أو كمجموعة من الموهومين الذين لم يتخلصوا من الأساطير القديمة، أو حتى كمجموعة من الإرهابيين. فأصبح هؤلاء الأشخاص في حاجة دائمة للدفاع عن أنفسهم.

في هذه الظروف تبدأ قصتنا: قصة شاب في العشرينات من عمره، يدرس الطب في العاصمة، لكنه ينتمي إلى قرية بسيطة في الريف. وهنا تبدأ قصتنا.

****

أنظر كل يوم إلى الحقول من حولي، تبدو مزهرة وجميلة اليوم كما في كل يوم.

أتأمل وجوه العابرين في الطرق بينما أنتظر زميلي رفيق.

ها هو يعبر الطريق نحوي وهو يبتسم لإحدى الفتيات المارات، لكنها ترد عليه بنظرة تحقير.

يصل إليَّ أخيرًا ويسألني ساخرًا:

_ هل تأخرت كثيرًا؟

_ لم أشعر بالوقت، فقد تحدثت مع والدتي، وكعادتها في نهاية حديثنا دعت لي.

ابتسم صديقي ساخرًا:

_ هلا أخبرتني أن والدتك لا تزال تعتقد بوجود إله؟ ذكّرني، بأي ديانة كانت تدين؟

_ بالمسيحية.

_ أنت تعرف أني لا أزال لا أستطيع التفرقة بين هذه الأديان. أعتقد أن أجدادي كانت ديانتهم الإسلام، أو ربما غير ذلك... لا يهم الأمر.

استمعتُ إلى سخرية صديقي بصمت، فقد أصبحت معتادًا على ذلك، فهو غير مؤمن بوجود إله، ولا يشعر أن هناك شيئًا ينقصه. أما أنا، فقد كانت ضالتي كبيرة، فليس

لي أحد أشاركه أفكاري، أو أخبره أنني لا أقتنع بفكرة عدم وجود إله. فإن قلت هذا، سأبدو متخلفًا، غير أنني أدرس الطب، وأول شيء سيقال لي: "ألم تقرأ حتى عن نظرية التطور حين كنت في الصف الخامس؟"، وتبدأ رحلة السخرية.

فقد أصبحت كل الفلسفات والثقافات التي تُقدَّم الآن تشير إلى عدم وجود إله، وأي محاولة لمخالفة ذلك يُنظر إليها على أنها ضعف عاطفي، وأنك في حاجة إلى مثل هذا التوهم بوجود إله كي ينقذك.

لم أكن أعرف كيف أشرح هذا الصوت الداخلي الذي يخبرني بوجود إله لهذا الكون، وأنه صالح، وأنه يحبني.

أخبرتُ ذات مرة زميلي بهذا الأمر، وهو مهتم بعلم النفس، فقال لي: "هذا هو صوت أمك، فهذه هي الكلمات التي كانت تخبرك بها حين كنت طفلاً، وهي الآن أصبحت صوتك الداخلي".

ربما أقنعني كلامه، لكنه لم يغيّر من حقيقة شعوري.

في طريقنا إلى الجامعة، قابلنا جُنيد، وهو زميل دراسة. ألقى جُنيد نظرة إلى فتاة عبرت أمامنا وكانت ترتدي شيئًا يدل على هويتها الدينية، فاستاء من مظهرها وقال:

- **كيف إلى الآن يوجد مَن يعتقد بوجود مثل هذه الخرافات ويعتد بها**
- **أجبته: ما شأنك بها؟ لماذا أنت غاضب إلى هذا الحد؟**
- **جُنيد: ألم تقرأ التاريخ من قبل؟ هؤلاء "المؤمنون" كما يدعون أنفسهم، كانوا سببًا في إقصاء ونبذ كل مَن هو مختلف عنهم، وفي الأزمنة الموغلة في القِدم كانوا يعذّبون ويقتلون المختلفين عنهم.**
- **_ لكن لا أحد يفعل هذا الآن، بل بالعكس، تراهم دائمًا خائفين، يحاولون محو الصورة الذهنية القديمة عنهم بأنهم إرهابيون وكارهون للحياة.**
- **_ هذا فقط لأنهم أصبحوا أقلية، وفقدوا أي سلطة كانوا يملكونها.**

دخل رفيق معنا في الحوار، وقال لي:

- **_ لا أفهم سبب دفاعك الدائم عن هؤلاء، رغم أن مَن تُدافع عنهم لا يحبوننا، بل في نظرهم نحن عُصاة هالكون، ويشعرون بالأفضلية الأخلاقية دائمًا على أساس أن ليس لدينا قيم أو مبادئ. وقديمًا كانت كلمة "ملحد" مسبة.**
- **وضحكنا سويًّا، فقد كان الأمر أقرب إلى نكتة.**
-

- أجبته:
- **_ وهناك أيضًا مَن يشعر من الملحدين بالأفضلية الثقافية والعلمية نحوهم، وكأن لا مؤمن مثقف أو متحضّر.**

نظر إليّ رفيق في استياء، ثم قال وقد رفع أحد حاجبيه:

- **_ هل، يا صديقي، سيأتي يوم وأراك تردد هذه الخرافات؟**
- **_ لستُ متأكدًا بعد من أنها خرافات.**
- **_ هل تعتقد أننا في هذه الحياة مجرد ممثلين؟ وأن مَن يحرّكنا حقًا هو الشيطان أو الله؟ إنهم يتجاهلون طبيعة الخير والشر فينا، وينسبونها لقوى خارجية.**
- **_ لا أعتقد أنهم يفعلون ذلك. حقيقةً، لستُ دارسًا لأي عقيدة حتى أستطيع الرد عليك، لكن ما أعلمه أن هناك عالمًا روحانيًا يؤمنون به.**
- **أنا كثيرًا ما أفكر: ما أول شيء ستراه عيني عقب موتي؟ لا أعرف. لا أصدق أن الموت سيكون النهاية.**
- **أشعر أن هناك بداية أخرى، بالتأكيد.**

لم أحب أن أُكمل حديثي مع صديقي، فقد كنت أعرف أن رفيق يرفض وجود الله لأنه يؤمن بالعلم، ويرى أن الإيمان بالله يشجّع على الخرافات والأساطير غير المصدقة.

أما جُنيد، فقد كان فنانًا حالمًا، يرى في الأديان التقليدية قيودًا تحد من حريته، وتمنعه من ممارسة الحب مع مَن يرغب، وأنها تقيد رغباته ومشاعره.

أثناء حديثنا، جاءت إلينا نيفيهان، صديقتنا. لم تسمع كثيرًا مما قيل، لكنها سمعت الجُمل الأخيرة من حديثنا، وكانت تمسك بأحد كتب الطاقة، وتعلّق قلادة من حجر كريم.

أخبرتنا أنه الحجر الذي يناسبها، وأنه يجلب لها الحظ الجيد.

نظر إليها جُنيد ورفيق، وقالا لي:

_ ها قد جاءت شريكتك، إنها مثلك تعتقد بمثل هذه الأفكار. حتى إنها قالت لي مرة إنها عاشت في عالم قديم، وزمن قديم كإحدى الجاريات، ثم كممثلة، والآن رُوحها تشكلت كطبيبة.

تؤمن نيفيهان بالفلك، وتشرح لنا كثيرًا مما لا نستطيع فهمه.

تخبرنا كثيرًا عن الكون، وما يرسله لنا، وما نرسله إليه، وكيف نظل نعيد تلك الدروس حتى تتعلم الروح درسها.

هناك كثيرون أيضًا يتبعون هذا "العلم" ويقولون إنه غيّر حياتهم.
تحدثنا أيضًا عن "قبول العالم" و"التسليم لإرادة الكون العليا".
كنتُ أفكر كثيرًا: أليس هذا قريبًا مما كانت تخبرني به والدتي حين كنت طفلًا؟
كانت تقول: "يجب أن نسلّم حياتنا لله، ونقبل ما أعطاه لنا".
تحدثني نيفيهان أيضًا عن أهمية الامتنان، الذي يرسل ذبذبات عالية للكون فتعود إلينا،
ويمكن تسميته أيضًا "الشكر لله" حتى يزيدنا.
لكن، رغم اتفاق نيفيهان معي على وجود العالم الروحي، إلا أنها ليست مؤمنة بالمعنى التقليدي الذي كانت عليه أمي.
نعم، كنتُ أجد تشابهًا بين فكر نيفيهان وفكر والدتي، لكنهما لم يكونا الشيء ذاته.
لذا، كنت أرتاح في الحديث معها عن الروحانيات، لكننا لا نتفق اتفاقًا تامًا.
لكن، لماذا يوجد قبول نسبي في عالمنا الآن لهذه الأفكار، ورفض لفكرة الدين التقليدي؟
ربما لأننا نرغب في إله نشكّل نحن صفاته، ولا نرغب في التعرّف عليه كما هو.
قد حان موعد المحاضرة، لكن قبل أن نذهب، تلقيت اتصالًا هاتفيًا من رقم والدتي.
لكنها لم تكن هي.
كانت إحدى الجارات، اتصلت لتخبرني... توفيت والدتي.

****

ذهبتُ إلى الكنيسة في قريتنا، كانت هذه المرة الأولى التي أدخل فيها كنيستنا منذ فترة طويلة.

كنت قد اعتدت في طفولتي أن تأخذني أمي إليها، لكن حين كبرت، لم أعد أشعر بحاجة إلى أن أتواجد فيها.

بدأت تُقام صلاة الجناز على أمي. لقد انتهت حياتها كما كانت تتمنى، داخل الكنيسة.

بموت أمي، شعرت أن دائرة الفراغ قد اتّسعت داخلي.

فكأن إيمان أمي، رغم كونه كان دائمًا مصدر سخريتي، إلا أنه ربما كان مصدر طمأنينة لي دون أن أدري.

كانت تؤمن دائمًا بوجود إله صالح يعتني بنا.

كنتُ أسمعها دائمًا تتحدث عن الله، قائلة إنه أخبرها بشيء تفعله، أو ساندها حين كانت بحاجة إلى سند، أو علمها شيئًا ما.

لم أكن أفهم كيف لها أن تتحدث مع إله غير منظور وكأنها في علاقة حقيقية معه.

رغم سخريتي منها، إلا أنني كنت أحسدها... بل وأغار منها.

لماذا لا يتحدث الله إليّ كما يفعل معها؟

لماذا لا يُجيب على كافة الأسئلة التي تدور في ذهني؟

تذكّرت حين كانت تقول لي أمي: "إن لله أساليبه الخاصة، وتوقيتاته الخاصة به".

انتهت صلاة الجناز.

دُفنت أمي.

ودّعتها للمرة الأخيرة.

والآن... سوف تعرف أمي إجابة سؤالي: ما أول شيء سيراه الإنسان عقب موته؟

بعدما ذهب المعزّون، بقيتُ بمفردي.

جلستُ بجوار قبر والدتي وحيدًا، أتأمّل قريتي من بعيد، وأوراق الشجر وطيور السماء المحيطة بي.

ثم بدأت أبكي، فقد هجرتني أمي للأبد.

رفعتُ عيني إلى السماء، وتذكّرت أمي حين كانت تصلي قائلة:

"رفعت عيني إلى الجبال، من حيث يأتي عوني".

ثم بكيت... لماذا يحجب الله وجهه عني؟

هل أغضبته إلى هذا الحد؟

ثم بكيت أكثر.

تذكّرت كل ذكرياتي مع أمي.

تذكّرت أسئلتي، وحيرتي، وبحثي في الفلسفات المختلفة كي أجد إجابة.

كانت أمي بسيطة جدًا، لا تستطيع فهم تلك الفلسفة.

وكنت أشعر بالأفضلية عليها وقتها.

أما الآن... فأنا أحسدها.

فقد ملأ الشك قلبي.

لم آخذ خطوة في أي طريق.

لم أؤمن بالله كما يجب، ولم ألحد مثل أصدقائي، بل وقفت في منتصف الأمور.

لم أشرب لأرتوي، فقط كنت أنظر إلى النهر، مكتفيًا بالرؤية... لكني لا أزال ظمآن.

نظرتُ مرة أخيرة إلى قبر والدتي، وكل ما تمنّيت... أن يكون لي ذلك الإيمان البسيط الذي كان لها.

فقد اكتفيت من المعرفة.

ثم نظرت إلى سكان قريتي، الذين كان معظمهم من المؤمنين – على عكس سكان المدن – ورغبت أن أرجع، فأكون مثلهم: شخصًا بسيطًا... لكن ذو بصيرة.

بصعوبة حاولت أن أفهم ما يجري. نظرت إلى كل شيء من حولي. أين أنا؟ ما هذا المكان؟ يبدو أنها مستشفى، بل ويبدو أنها المستشفى التي أعمل بها.

لكن لماذا لا يُلقي أحد السلام عليّ؟ أو يُحادثني؟ أو حتى ينظر إليّ؟ الجميع يتجاهلني.

مهلًا... ما هذا؟

يبدو أن هناك أحدًا يبكي. اقتربت لأرى، فرأيت أصدقائي في المستشفى ومعهم بعض من أهلي.

لكن... لماذا البكاء؟ ماذا حدث لهم؟

حاولت أن أتذكّر آخر شيء فعلته... يا الله... أشعر وكأن ألف عام قد مر.

عقلي لا يتذكّر شيئًا.

مَن أنا أصلًا؟ وماذا أفعل هنا؟

... تذكّرت. نعم، لقد تذكّرت.

أنا ألكسندرا. وُلدتُ في مقاطعة ساموا الأمريكية، من عائلة مسيحية.

نعم، أتذكّر الآن.

كانت أمي منذ صغري تحدثني عن الرب، وعن القديسين والقديسات.

وفي أحد الأيام، سألت أمي عن صورة امرأة كانت لدينا في المنزل: مَن تكون تلك المرأة؟

أخبرتني أنها الأم تريزا. لم أكن أعرف حينها مَن هي الأم تريزا، فظلّت أمي تحدّثني عن أعمالها وحياتها، وكيف ساعدت الكثير من البشر.

أُعجبت جدًا بالأم تريزا، وأحببتها. ثم وددت، حين أكبر، أن أكون مثلها.

وصليت للرب أن يجعلني مثل الأم تريزا عندما أكبر.

لذا، كان من الطبيعي أن أختار دراسة الطب. وبالفعل درستها، وتخرّجت، وكنت طبيبة متميزة.

لكن هذا فقط لم يُساعدني في تحقيق حلم طفولتي أن أكون مثل الأم تريزا.

قرّرت أن أسافر إلى الهند.

هناك، في أحياء الهند الفقيرة، أصبحت أعمل في مستشفى يساعد الفقراء.

كنت أجري لهم الكثير من العمليات الجراحية، بمقابل مادي ضئيل.

تذكّرت كل ذلك، فشعرت بالرضا عن نفسي.

لقد أفنيت حياتي في خدمة الرب.

ثم سمعت أحد أصوات المارّة يقول – وهو ينظر إلى جثة ما، ويبدو على صوته التأثّر:

"فلترقد بسلام. لقد كانت حقًا قديسة. أحبّت الناس كلهم وساعدتهم دون مقابل."

يا الله... لا أفهم. عن مَن يتحدّث؟ هل يتحدّث عني؟

نظرت إلى تلك الجثة بتمعّن... كيف لم أعرفها؟ إنها أنا!

يا للهول... لقد مُت.

الجميع هنا حزانى على موتي.

ثم سمعت صوتًا آخر يقول:

"لا يجب أن نحزن لموت ألكسندرا، فهي بالتأكيد ذهبت إلى السماء. فقد أفنت حياتها في خدمة المرضى."

ثم ابتسمت... نعم.

إن كنتُ قد أفنيت حياتي في خدمة المرضى، ويبدو أنني قمتُ بأعمال كثيرة صالحة،

فلماذا أخاف إن مُت؟

_ الكسندرا الكسندرا

نظرتُ خلفي، فوجدتُ نورًا ساطعًا.

يا الله... ما هذا؟

حاولت أن أنظر بتركيز... إنه ملاك!

هل هو مَن سيدخلني إلى جنة الفردوس؟

نظر إليَّ الملاك باستياء، ثم قال:

- **لقد تركتُكِ وقتًا طويلًا حتى تتذكري مَن أنتِ وما هي حياتك، والآن جاء وقت نتيجة أعمالك في الحياة.**

ثم أخرج صندوقًا بدا كبيرًا جدًّا، وأخرج منه أوراقًا كثيرة.

وبعدها، أخرج ورقة صغيرة، نظر فيها، ثم قال لي

- **يؤسفني أن أخبركِ أنكِ لا تستطيعين الدخول إلى السماء.**

احمرّ وجهي مجازيًّا، وانفعلتُ قائلة:

– لكن كيف؟! لقد قضيتُ حياتي كلها في خدمة الرب وخدمة المرضى!

زفر الملاك قائلاً:

– انظري... هذه الأوراق كلّها تُسجِّل ما قمتِ به من أعمال صالحة لمساعدة المرضى والفقراء. لكن انظري هنا... هذه الورقة الصغيرة، مكتوب بها خطيئة واحدة: البرّ الذاتي.

لقد خدمتِ الفقراء، لكنكِ لم تخدمي الرب.

صرختُ به:

– ماذا؟! كيف؟! وكل هذه الأوراق التي تحتوي على أعمالي الصالحة... لن آخذ أجرها؟

أجابني بهدوء:

– في الحقيقة، مكتوب عندي أنكِ قد أخذتِ أجرك بالفعل.

– متى؟

– حين كنتِ في الأرض... الجميع كان يراكِ قديسة.

– نعم، لكن هناك أعمالًا خيرية كنتُ أفعلها في الخفاء، لا في العلن!

– مكتوب أنكِ أيضًا أخذتِ أجرك عليها، ففي كل مرة فعلتِ فيها ذلك، كنتِ تنظرين إلى نفسك كقديسة، وتشعرين أنكِ شخص عظيم.

بدأتُ أبكي... أبكي كثيرًا... ثم سألته:

– لكن... هل كان يجب أن أشعر بالحزن إن ساعدتُ أحدهم وأنقذتُ حياته؟

كان من الطبيعي أن أشعر بالرضا عن نفسي

_ نعم، من الطبيعي أن تشعري بالرضا حيال نفسك،

لكن كان يجب أن ترجعي المجد لله، لا لنفسك.

كنتِ تفعلين هذا بلسانك فقط، أما في قلبك، فكلما ساعدتِ أحدًا، كان قلبك يتحرّق شوقًا لذلك الإحساس بالعظمة... وأنكِ أفضل من الآخرين... وأنكِ قديسة.

كنتِ تعلمين في قرارة نفسك أنه سيأتي اليوم الذي تُكشَف فيه أعمالك، فيقول الجميع: "كانت قديسة".

وهذا ما حدث بعد موتك. سيتذكّرك الجميع بأنكِ كنتِ قديسة،

وحينها تكونين قد حققتِ حلم طفولتك... وأصبحتِ مثل الأم تريزا.

لقد كانت الأعمال الصالحة – في حد ذاتها – شهوة قلبك،

هدفًا تسعين من خلاله لأن تكوني امرأة عظيمة.

نسيتِ أن ما يجب أن يشعرك بقيمتك هو وجودك في الرب، لا أعمالك الصالحة.

سمعتُ كلمات الملاك وأنا أتلّوع من الحزن والكرب...

هل أضعتُ عمري في الطريق الخاطئ؟

ثم سألته:

– إذن... هل سأذهب إلى الجحيم؟

– لا، لن تذهبي. أنتِ لم تؤذي أحدًا...

لكن أيضًا... لن تدخلي السماء.

– إذن... أين سأذهب؟

– ستقفين عند باب السماء... هنا... لكن لن تدخلي.

بكت ألكسندرا.

تذكّرت حين كانت طفلة صغيرة، وتركتها أمّها في أحد الأيام وأخذت أختها لتخرجا في نزهة.

كان شعورًا قاسيًا حينئذ...

هل سيكون هذا هو شعوري إلى الأبد؟

أن أقف على باب السماء... دون أن أدخل؟

نظر إليّ الملاك بشفقة وقال:

ـ أليس هناك أحد يذكركِ ويصلّي لأجلكِ؟

أجبته:

ـ إذا كان الجميع يعتقد أنني قديسة، فهل سيُصلِّي أحد من أجل غفران أخطائي؟ لكن... هل هذا سيُغيّر شيئًا؟

قال بهدوء:

ـ لا أعرف.

لكن تأتينا صلوات كثيرة من أجل المتوفّين...

دعيني أفكّر...

خذي صندوق أخطائك، وجرّبي أن يشفع لكِ أحد هؤلاء القديسين.

حملت ألكسندرا صندوق الخطايا الخاص بها، فوجدت أنه ثقيل جدًا.

تفاجأت: كيف يكون بهذا الثقل، وهو يحوي فقط خطيئة واحدة؟

وبينما كانت تعبر إلى أحد القديسين، رأت أشخاصًا يدخلون السماء، لم تكن تتخيّل أنهم سيُسمح لهم بالدخول.

بل كانت دائمًا تضع نفسها فوقهم.

ودّت أن تبكي كمدًا... كيف يحدث ذلك؟

كيف خدعت نفسها إلى هذا الحد؟

وكيف صوّرت لها نفسها طوال الوقت أنها في مكانة أعلى؟

أخيرًا، وصلت إلى أحد هؤلاء القديسين.

عرفت أنه قديس من الهالة الكبيرة التي أحاطت بوجهه.

كان النور المشع منه كثيرًا جدًا.

لم تعرف من هو، لكنها عرّفته بنفسها، وأخبرته أنها تطلب شفاعته.

لكنها تفاجأت... لقد كان يعرفها!

قال لها:

– آه يا ألكسندرا... ماذا تطلبين؟

هل تعلمين أن اسمك سيُخلّد على أحد المستشفيات التي خدمتِ بها؟

أجابت باستغراب:

– كيف يُخلّد، والأرض نفسها ستزول، ويزول كل ما بها؟

– لكن هذا ما كنتِ تبحثين عنه دائمًا... الخلود، والتكريم من البشر.

وقد أخذتِه. إنه العدل.

– أي عدل؟!

لقد أضعت حياتي كلّها وأنا أخدم المرضى،

في الوقت الذي كانت فيه صديقاتي يسهرن ويستمتعن بشبابهن...

لم أُكَوّن عائلة، ولم يكن لي أولاد، أو حتى ثروة.

كنت أتعامل مع أمراض مُعدية، وأعرض حياتي للخطر يوميًا.

هذا ليس عدلًا!

قال لها:

– ألكسندرا... أنتِ تُشبهين إلى حد كبير "الأخ الأكبر" في قصة الابن الضال. إنكِ تعتقدين أنكِ تستحقين، لأنكِ أفنيتِ حياتك، وكأنكِ استوفيتِ أجرة السماء وتطالبين بها.

طأطأت ألكسندرا رأسها أمام القديس.

شعرت بالعار، كأنها تعرّت... رغم أنه لم يعد لها جسد.

كانت روحها قد تعرّت.

امتزج داخلها الخزي بالخوف بالندم.

لا يوجد في قاموس الحياة بعد، ما يمكن أن يصف هذا الإحساس.

كانت روحها الآن معذَّبة، والبكاء صار صوت روحها.

ثم نظرت إلى القديس بأسى، وقالت بعينين خجلتين:

– اشفع لي... حتى أدخل السماء.

وقدّمت له صندوق خطاياها.

حمله عنها، ثم طرق عليه.

استمر الطرق بصوت أعلى... وأعلى... وأعلى...

****

لم أعرف ما هذا، حتى أدركت أنه صوت الباب.

هناك أحد يطرق باب غرفتي.

يا الله... لقد كنت أحلم!

لم أمت!

لا يوجد ملائكة، ولا قديسين...

أنا في مكتبي في المستشفى. وأمامي كتاب عن الأم تريزا كنت أقرأه قبل أن أغفو.

فتحت الباب، كان التمريض يُبلغني بموعد إحدى العمليات.

أخبرته أنني قادمة.

ثم فكّرت...

ما سأصنعه الآن عظيم،

فالعملية التي سأُجريها ستجعل أحد الأطفال يمشي مرة أخرى.

لكنني تذكّرت الحلم...

أنا لا أجعله يمشي، بل الله هو من يفعل ذلك من خلالي.

لكن هذا لم يمنعني من الشعور بالخيلاء.

فصليت في قلبي لله، أن يساعدني كي أتخلّص من شعوري بالعظمة والأهمية. ثم مضيت إلى غرفة العمليات.

في المساء، بعد انتهاء يوم عملي، حزمت أمتعتي، وعزمت على السفر إلى أهلي في جزيرة مقاطعة ساموا.

تأملت هناك الطبيعة الخلّابة، وذهبت إلى كنيستي.

وكان بداخلي رغبة أن أصلّي من أجل أجدادي الذين صعدت أرواحهم إلى السماء.

فقد كنتُ أرغب، في الحُلم، أن يُصلّي من أجلي أحدهم.

صلّيت... وصلّيت،

من أجلهم،

ومن أجل ألا يغترّ قلبي..

الحكاية التاسعة: مصرع قطة

في نهار أحد الأيام المعتادة، استيقظتُ مبكرًا لإعداد طعام الفطور، وذهبتُ إلى المطبخ، فوجدتُ قطتي وقد استيقظت أيضًا. أتت إليّ سريعًا كعادتها، ثم تمسحت بي، وحاولت تسلقي لأحملها. نظرتُ إليها، فرأيتُ حدقتي عينيها قد اتسعتا محبةً لي. مددتُ ذراعي لها، فصعدت عليهما حتى وصلت إلى كتفي، ثم أخرجت لسانها ولعقت خدي به، ثم حاولت تقبيلي. ابتسمتُ لقطتي الصغيرة، واستسلمتُ لمحاولتها تقبيلي، ثم فكرت أن أعدّ لها طعام الفطور، الذي يتكون من الحليب داخل "بيبرونة" نظرًا لصغرها.

كان زوجي قد استيقظ حينها، ثم غسل وجهه وأتى إلى المطبخ، فرآني وأنا أحمل قطتي على يدي. نظر إليّ شزرًا، وقال لي

_ ده إحنا لو خلفنا، مش هتهتمي بالعيل زي القطة

زفرتُ ضيقًا من كلامه، وأنزلتُ القطة عن ذراعي بعد أن أعددتُ لها طعامها لتأكله. ألف هناء وشفاء على قلبها.

ثم بدأتُ في إعداد الفطور لي ولزوجي، ووضعتُ الأطباق على الطاولة، وقبل أن أضع الماء والخبز، نظر زوجي إلى القطة باستياء.

_ طبعًا القطة بتفطر قبلي؟

استأتُ من كلامه لي. كنتُ أعلم أن زوجي يغار من قطتي، لكن لم أكن أعلم لماذا يضع نفسه في مقارنة دائمة معها.

نظرتُ إليه وقلتُ

_ طب ساعدني خلينا نحط الاكل ونفطر

قام بمساعدتي في ترتيب المائدة، وبدأنا نأكل. ثم أتت قطتي وبدأت تحوم تحت أرجل زوجي وتموء أمامه. نفخ زوجي ضيقًا منها، وقال بصوت مرتفع

_ وبعدين بقى في القطة بنت الكلب دي

ابتسمت وقلت له

_ بتحبك ياخي

امتعض حينها وأكمل طعامه وهو يتحاشها، قلت له

_ إيه رأيك نسميها إيه

_ ونسميها لية أصلا، تبقى القطة، هو في قطة غيرها في البيت

مططت شفتاي استياءً من كلامه وقلت له

_أنا هسميها كاربي

لم يُجبني، لكنه أكمل طعامه كأنه لم يسمعني، أو أن ما قلته لا يعني له شيئًا.

حزنتُ لتجاهله حديثي، لكنها كانت عادته.

أنهى زوجي طعامه وخرج إلى عمله سريعًا، وبقيتُ في المنزل أنا و"كاربي" سويًا.

قمتُ بغسل الأواني، ثم تنظيف المنزل، وكانت "كاربي" تلاحقني في كل عمل أفعله، تتسلق ظهري حينًا، ثم تتعلّق بيدي وتعطيني قُبَلًا حينًا آخر.

وحين انتهيتُ من عمل المنزل، شرعتُ في إعداد طعام الغداء وبجانبي قطتي تلاعبني، وأحيانًا أحملها وأحتضنها، وقد شغّلتُ جهاز التلفاز لأستأنس به قليلًا.

وهكذا كانت حياتي تسير على هذا النحو الرتيب حتى يعود زوجي في المساء، وهو عابس الوجه، لا يرغب سوى في تناول الطعام ومشاهدة التلفاز.

لم يكن هناك ما يؤنس وحدتي سوى قطتي "كاربي"، التي وجدتها منذ أسبوع وهي قطة وليدة أمام مدخل العمارة تموء بصوت منخفض، فأشفقتُ عليها وأخذتها.

عارض زوجي في البداية، كونه لا يحب القطط، ولكن أمام إصراري وافق.

أخذتُها في الأيام الأولى، وبدأتُ أرعاها، وبدأ زوجي يشتكي من صوت موائها، وأنه يزعجه، لكنه رضخ للأمر الواقع في نهاية المطاف.

وأصبحت القطة فردًا من أسرتنا الصغيرة، وأضفت الفرح والبهجة إلى حياتي، عندما ألعب معها وألاطفها.

كبرت قطتي، وكبر تعلقي بها. شعرتُ أنها ابنتي، لا أستغني عن ملاطفتها يومًا.

أما زوجي، فكان يُجَنّ حين تكسر شيئًا أو تتلف أحد أسلاك الشاحن أو السماعات الخاصة به، فأُسرع لإنقاذها وأهرب بها من أمام بطش زوجي الغاضب.

بدأ حينها يُلحّ عليّ كي نُخرجها من المنزل، لكني رفضتُ بشدة وتمسكتُ بها، وكنتُ أرى أنه دائمًا يغار منها لأسباب لا أعلمها.

مرت حياتنا هكذا، حتى أتى يوم وقرأتُ إعلان وظائف على موقع الإنترنت.

أريته لزوجي وأخبرته برغبتي في التقديم لهذا العمل، كما أنه عمل من المنزل، فلن أخرج.

- **إية رأيك؟**

نظر إليّ باستهزاء، ثم أخرج نفسًا طويلًا وهو يتأفف، ولم يُجب.

أكره تلك الطريقة التي يتعامل بها زوجي معي، حين لا يعجبه أحد اقتراحاتي فيقوم بتجاهلي ليشعرني كم أنا سخيفة، وما أقوله هراء بالنسبة له.

بدأتُ أتوتر، وأنا أرغب في أن يُجيب سؤالي، لذا قلت له بصوت مرتفع:

- **تمام أنا هقدم على الوظيفة**

نظر إليّ طويلًا، وقال

_بس أنا مش موافق

أزداد غضبي وقلت

_ أنت كل حاجة مش موافق، مش موافق، كل ما اجيبلك وظيفة تطلع فيها القطط الفاطسة

زفر مجددا وحاول أن يبدو هادئًا واقترب مني بعد أن رقق صوته قائلًا

_ما تيجي نشوف موضوع الخلفة وتبقي شغلتي نفسك بجد

حينها تقدمت قطتي نحو قدمي وبدأت تموء ولم يكن لي رغبة في اللعب معها فأكملت حديثي متجاهلة قطتي كاربي

_ إحنا حاولنا في الموضوع ده قبل كدة وخلاص أنا مش هحاول تاني

اتجهت القطة من قدمي إلى قدم زوجي وبدأت تموء حوله حتى يلاعبها لكنه تجاهلها أيضًا وقال

_ يعني هنعيش حياتنا كدة، أنا عايز أولاد

بدأت القطة تقفز نحو زوجي لكنه تجاهلها مستاء من الضجيج الذي أحدثته

_ طب اسمع بقى يا عمرو، أنا هقدم على الوظيفة دي وهشتغل فيها وده آخر قرار عندي

ثم تركتُه وذهبتُ إلى الغرفة، متجاهلةً وجوده كما يفعل معي، فبدأ يصيح بصوت عالٍ. كنتُ أعلم أن هذا سيستفزه، لا بأس، فليَشعر قليلًا بما أشعر به دائمًا حين يتجاهلني.

ثم سمعته يُحدّث القطة قائلًا

_ وأنت عايزة انتي كمان، غوري بقى

ثم لم أسمع شيئًا، صمت زوجي فجأة، توقفت ثورته بلا مقدمات. أقلقني ذلك، فذهبتُ لأرى ماذا حدث. رأيتُ زوجي جالسًا على الأريكة ينظر إلى الأسفل، وقطتي لا أجدها.

سألته

_ فين كاربي

لكنه لم يرد كعادته، ثم أخذ نفسًا عميقًا وقال ورأيت نظرات نادمة في عينيه

_جتت تتنطط جمبي وكنت عايز ابعدها عني، محستش بنفسي غير وأنا برميها من البلكونة

جريتُ إلى الشرفة، فرأيتُ قطتي مرمية أمام مدخل العمارة.

نزلتُ لأعرف ما حدث لها، فوجدتُها قد ماتت بعد أن تكسّرت أضلعها.

بكيتُ عليها بشدة. نظرتُ إلى زوجي، فكان واقفًا خلفي، وعيناه تبدوان آسفتين على ما فعل. لكنني لم أحتمل أن أعيش معه في منزل واحد، فذهبتُ إلى بيت والدتي، وأنا أفكر في الطلاق.

بعد مرور شهر

استيقظتُ في صباح كئيب كحياتي. غسلتُ وجهي، ثم اتجهتُ إلى المطبخ لإعداد طعام الفطور.

افتقدتُ قطتي كثيرًا؛ مواءها، وصوتها، وملاحقتها لي.

كنتُ أرغب في احتضانها مرة أخرى، وهي تتمسّح بأنفي ووجنتي.

أين أنتِ يا كاربي؟ لا أحد يعلم ما معنى أن يكون عالمك الصغير خاليًا مما يهون عليك، سوى كائن رقيق مثل قطتي، ثم تفقده.

كنتُ وحيدة جدًا. لا عمل يشغلني، ولا أولاد أستأنس بهم. لم يكن لي سوى "كاربي".

استكثر زوجي وجودها، واستكثرت أمي حزني على غيابها.

فحتى مشاعر نوحي وألمي لفقدي أهم كائن في حياتي، لم يُقدّرها أحد.

حين ذهبتُ إلى منزل أهلي غاضبةً من زوجي، نظرت إليّ أمي وأخواتي بنظرة استياء وسخرية:

كيف لي أن أترك منزل الزوجية من أجل سبب "تافه" كهذا؟

فقالت لي أمي:

_أنت يا بت عايزة تجنيني، انت سايبة بيت جوزك عشان القطة ماتت، معلش كان متعصب وقتها ويا سيتي يبقى يجبلك غيرها

جاوبها سريعاً أخي الصغير:

_ ماتصديقهاش ياما، هي عاملة الفيلم ده عشان عايزة تشتغل، وبتجيبها في القطة

استاءت من كلامهما، وقلت له

_ لا يا خالد الشغل مش مشكلة وانا مش بتلكك بالقطة، أنتوا لية مش قادرين تتخيلوا، إنسان قتل روح، هي دي حاجة قليلة عشان ارجع أعيش معاه، أنا مش قادرة أنسى منظر القطة وهي متكسرة لغاية ما ماتت

فقال أخي الأكبر رامي: **أدي آخرة دلع البنات عايزة تسيب جوزها غشان قطة**

نظرت لي أمي دون استيعاب لما قلته، وقالت لي:

- يعني لما الناس تقولي بنتك اتطلقت لية، اقولهم اية يا منى عشان حتت قطة لاقتها في الشارع

أدركتُ أن أمي لا تفهم ما أعانيه.

لقد كان زوجي عصبيًّا منذ تزوّجنا، وقد حاولتُ استيعابه، لكني لم أكن أعلم أن به من الوحشية ما يجعله يقتل قطتي البريئة.

كنتُ أعلم أيضًا أنه يغار منها، لسبب لا أعلمه، لكن أيُّ وحشيةٍ تلك التي تجعل الإنسان يفرغ غضبه وعدوانه على مخلوق صغير وضعيف لا يملك أن يدافع عن نفسه؟ كيف لي أن آمن على نفسي وأنا أنام بجواره؟

أخرجني صوت أمي من أفكاري، حين قالت.

_ أنا عارفة أن موضوع الخلفة مأثر عليكي، يمكن اتعلقتي بالقطة دي عشان ربنا مارزقكيش بعيال، بكره لما تخلفي هتنسي القطة دي وجوزك كمان هيهدأ من عصبيته دي

لا أجد أي رابط بين ما فعله زوجي وموضوع إنجابنا الذي تأخّر؛ فهذا لا يغفر له ما فعله في تلك الروح. غير أن بعض ما قالته أمي كان صحيحًا؛ إن جزءًا مني قد شعر بإحساس الأمومة مع هذه القطة التي كانت وليدة حين وجدتها، وقد كبرت أمامي، وهذا كله يزيد من بشاعة ما ارتكبه زوجي في نظري.

حاولت أمي وأخواتي تهدئتي، وأتى عمرو إلى منزلنا وأظهر ندمه واعتذاره.

في البداية، اعتقد أني غاضبة بسبب مسألة عملي، وكذلك أمي وأخواتي، وكأن جريمة قتل القطة ليست سوى حجة لغضبي. فقال زوجي إنه موافق أن أعمل، وحين أخبرته عن القطة، ابتسم في البداية ابتسامة أخبرتني كم يرى الأمر بسيطًا في نظره، ثم وعدني بأنه سيُحضِر لي قطة أخرى.

امتدحته أمي على عرضه ذلك، ورأت فيه كرمًا منه عليّ واستيعابًا لصِغَر عقلي، وكأني فتاة صغيرة قد كُسِرَت لها دميتها. حزنتُ لأن لا أحد من حولي يستوعب ما أمرّ به. ما وجدته من معاملة أهلي جعلني أقبل بالعودة إلى زوجي. انتهى الفطور، وقد نهض زوجي وجاء ليتناول الطعام معي.

كنتُ صامتة، لا أتحدّث، فحاول هو أن يفتح حديثًا معي

_ مالك **قاعدة كدة مبوذة، هو انت احلويتي ولا أنا بيتهألي**

قد اعتقد زوجي أن بهذه المجاملة سيجعلني أنسى ما حدث... أنسى أنه ارتكب جريمة لا يُعاقب عليها المجتمع الذي نحيا فيه، ذلك المجتمع الذي تطبّع مع الوحشية ووجدها أمرًا طبيعيًا، وأصبح من يرى قسوتها هو غير الطبيعي.

ثم سمعنا صوت جرس الباب يرن.

ذهب زوجي لفتح الباب، ولم أسمع سوى كلمة: "محضر".

حينها، حاولتُ أن أبدو طبيعية، وأمثل أني أتناول إفطاري، لكني كنتُ أُطعِم نفسي بسرعة وعصبية، توحي بأني أحاول أن أخفي شيئًا ما.

نظر إليّ زوجي مذهولًا وهو يقول:

_ أنا مطلوب في القسم؟! حدّ عمِل لي محضر جنح عشان قتلت قطة؟!

حاولتُ تجاهل النظر إليه وأنا أتناول طعامي، لكني شعرتُ بنظرات عينيه الغاضبة وغيظه مني. فزوجي، مثل هذا المجتمع المحيط بي، لا يرى فيما فعله جريمة.

لكنه لا يعلم أنها جريمة يُعاقب عليها القانون.

****

وجي، والدتي، وأخي رامي، جلسوا أمامي مجتمعين، وعبّر كلٌّ منهم على طريقته عن توتره. ظلت أمي تنظر إلى ساعة يدها وهي تزفر نفسًا طويلًا، محوّلة نظرها عني. أما زوجي، فمنذ استلامه المحضر، وهو يذهب ويجيء بعصبية في الشقة، بعدما قرر أنه لن يتحدث إلا في حضور أهلي، حتى يعلموا ما فعلتُ.

أما رامي، فلم يُحوِّل نظره عني، وكان يرميني بنظرة استياء،

حتى كسرت أمي حاجز الصمت قائلة:

_ يعني لازم يابني تكون منى هي اللي قدمت اللي بلاغ ده، مش يمكن حد تاني

_ وهو مين شافني غيرها

أجابه رامي سريعًا

_ يمكن حد من الجيران مثلًا

لم يكن رامي مقتنعًا بما يقول، وكذلك أمي،

ولكنهم كانوا يحاولون تهدئة زوجي، وكنتُ أنا أستمع إلى حديثهم صامتة، وقد كان صمتي قرينة ضدي.

لم أستطع أن أنفي، وكذلك لم أستطع أن أؤكد. أنا من قدّم البلاغ.

عندما رجعتُ إلى منزلي ولم أجد "كاربي"، دفعني حزني واشتياقي لها إلى اتخاذ موقف. كلما وقفتُ في الشرفة، تذكرتُ منظرها وهي ملقاة على الأرض، والدماء حولها. كان الدم يغلي في عروقي.

بحثتُ على الإنترنت، فوجدتُ أن قتل حيوان جريمة يُعاقب عليها القانون.

ذهبتُ إلى القسم، وأخبرتُ الضابط أنني أود الإبلاغ عن حادثة قتل.

فاتّسعت عينا الضابط، وسأل باهتمام. لكنني أوضحتُ له أنها جريمة قتل قطة.

فرأيتُ عينيه تعودان إلى حجمهما الطبيعي، وتغيّرت نبرة صوته المهتمة إلى نبرة فاترة،

ثم سألني بصوت رتيب

_ اتقتلت ازاي، حد سمها يعني

_ لا جوزي رماها من البلكونة وإحنا بنتخانق

_وانت جاية تعملي محضر في جوزك

أجابته بثبات

_ أيوة

نظر إليّ نظرةً فيها عتاب ولوم، تمامًا كما تنظر إليّ أمي وأخي الآن.

حاول أن يفتح حوارًا وديًّا بيننا، وسأل إن كنتُ غاضبة من زوجي، ولذلك قررتُ تحرير محضر ضده.

رقّق صوته، وحدثني بلهجة والدية، ناصحًا بأن أحلّ خلافاتي مع زوجي بعيدًا عن الأقسام. لكنني أوضحتُ له أن هناك جريمة قد حدثت، ويجب اتخاذ موقف حيالها.

نظر إليّ شزرًا حين رآني مصرّة على موقفي، وبدأ بإجراءات تحرير المحضر.

أعاد الخشونة إلى صوته، ولم ينظر إلى عيني طوال عملية كتابة المحضر.

ثم أخذتُ رقم المحضر، وخرجت.

أن تكون الشخص الوحيد الذي يرى الأمور بطريقة مختلفة، في حين لا يرى أي شخص آخر وجهة نظرك...

أحضر زوجي أهلي ليشهدهم على فعلتي، وقد اتفقوا معه؛ كيف لي أن أقدّم بلاغًا في زوجي لقتله قطتي؟

ما عدا واحدًا أحضره زوجي ليشهد عليّ، لكنه كان في صفي، وهو العم راتب، خال زوجي، والذي تولّى شؤونه منذ وفاة والديه.

وهو رجل قد تجاوز الستين من عمره، يحيا بمفرده منذ أن توفّيت زوجته، ولم يكن ينجب، لذا اعتبر زوجي بمثابة ابنه.

حين قصّ زوجي عليه ما حدث، صمت قليلاً وهو ينظر إليه من خلف عدسات نظّارته التي وضعها على منتصف أنفه، ويستند بكلتا يديه على عكازه،

ثم رفع حاجبه، ومطّ نصف شفته العليا تعبيرًا عن الاستياء، وقال

_ عايز الحق.. مراتك عندها حق

صمت زوجي ونظر له مذهولًا وتبعه جميع الجالسين وقبل أن ينطبق بشيء تابع العم راتب حديثه:

_ أنا من وقت ما مراتي ماتت وأنا عايش لوحدي، لما اشتريت كلب، في الأول كنت تعبان منه ولأني مش متعود اخد بالي من حاجة، لكن يوم عن يوم حبيته واتعلقت بيه وبقى الكلب ده أغلى حاجة عندي

ثم أردف ساخرًا

_حتى أغلى عندي منك أنت شخصيًا

كتمت حينها ضحكة انتصار وكتم أخي ابتسامة سخرية

فقال له زوجي

_بس ماتوصلش أنها تبلغ فيا يعني، خلاص كنت أجيب لها غيرها

رد عليه العم راتب

_ يعني أنت متضايق من المحضر اللي اتعمل ومش خايف من ربنا، انت ماتعرفش تعذيب حيوان وممكن يوصل لدخول النار ماسمعتش عن قصة الست اللي دخلت النار في قطة

احمرت عيناي زوجي وقال له بلهجة عاتبه

_خالي.. أنت كدة هتقويها عليا

_راجع نفسك يا عمرو يا بني، أنا قولت اللي عندي

ظل عمرو صامتًا ثم قال

_يعني المفروض أعمل اية دلوقت

نظر له رامي بنصف ابتسامة حاول إخفائها

_المفروض تدور لك على محامي

****

ذهبتُ للشهادة، وذهب زوجي إلى النيابة برفقة محاميه.

كان حينها ينظر إليّ بغضب، كأنه يودّ ضربي.

لكنني شهدتُ بما حدث.

ثم حكمت المحكمة عليه بالسجن ستة أشهر مع وقف التنفيذ، وغرامة مالية.

لم نكن أنا وعمرو نحيا معًا؛ إذ ذهب هو إلى خاله، وكنتُ أنا عند والدتي التي ظلّت ترميني بنظرات العتاب، لكنها فقدت الأمل في الحديث معي.

حاول خال زوجي الإصلاح بيننا، لكن يبدو أن عمرو شعر بأنها طعنة تلقّاها مني.

حاولتُ أنا أيضًا أن أتناسى ما حدث، وأن ما مرّ به عمرو كفيل بأن يغيّره.

لكن تُرى، هل سيتحوّل للأفضل، أم سيصبح أكثر تَوَحُّشًا؟

فالرحمة لا تُخلَق فجأة.

لذا، عاودتُ طلبي في الطلاق.

الحكاية العاشرة: الخائن

أحب الدراما كثيرًا. عندما كنتُ طفلة، كنتُ أقضي معظم أوقاتي في مشاهدة المسلسلات، أعيش كل قصة كما لو كانت قصتي أنا. وحين كبرتُ قليلًا، بدأتُ أقرأ القصص والروايات، فاشتعل خيالي بتلك الحكايات.

_ راوية، راوية... ماكوتيش القميص ليه؟

سمعت صوتًا قادمًا من بعيد، إنه صوت زوجي ينادي. يا إلهي، لقد نسيت كيَّ قمصان زوجي.

_ هو إنتِ هتفضّلي مهملة كده لغاية إمتى؟ ما تردّي عليّا؟ ولا مش قد المقام؟ ده إنتِ محظوظة إني جوزك، لو واحد غيري مكانش استحملك ده كله.

استمعتُ إلى تقريع زوجي في صمت حتى غادر المنزل. وعاد المنزل مملكتي الخاصة. قمتُ بتشغيل التلفاز، وضبطتُه على قناة الأغاني، استمعتُ إلى الموسيقى وأنا أغسل الأواني المتسخة في الحوض. ثم وضعت الطعام على النار، وأثناء ذلك تناولتُ هاتفي، فتحت تطبيق "فيسبوك"، وذهبت مباشرة إلى صفحة يوسف كعادتي، أُتابع ما كتب، وأين ذهب، ومَن علق عنده.

وإذا رأيتُ تعليقًا من إحدى الفتيات، دخلتُ صفحتها لأعرف مَن هي. فيوسف لديه الكثير من الصديقات، لكن لحسن الحظ، لا توجد لديه حبيبة – وقد تأكدتُ من ذلك مما يكتبه، ومن خلال صفحات الفتيات المرتبط بهن.

أذكر أنني قضيتُ ثلاثة أيام والقلق يأكلني حين رغبتُ في معرفة مَن هي "عبير" التي يكتب لها قصائد غزل يوميًا... لأكتشف في النهاية أنها والدته! فضحكتُ من نفسي كثيرًا حينها.

بدت لي إنسانة مثقفة وراقية. طبيعي أن تكون كذلك وهي والدة يوسف.

يا إلهي! ما هذه الرائحة؟! يبدو أنني نسيت الطعام على النار!

****

كانت مفاجأة حقيقية... وضع يوسف إعجابًا على ما كتبت.

في اليوم التالي، كنت ذاهبة لأتبضّع بعض المشتريات لمنزلي. وأثناء وجودي في متجر البضائع، قابلت يوسف.

عرفته على الفور، كانت تلك المرة الأولى التي أراه فيها في الحياة الحقيقية، لا الافتراضية كما اعتدت دائمًا.

نظر إليّ هو الآخر، كان أيضًا يتبضّع حاجات منزله. ألقى ابتسامة في وجهي، تسمرت في مكاني، لا أعرف ماذا أفعل. يجب أن أبدو ودودة أكثر...

يا الله، إنه يقترب مني، إنه يخاطبني وهو ينظر في عينيّ.

_ راوية... راوية مش كده؟ أنا يوسف... إحنا friends على فيسبوك، مش كده؟

حادثني ببسمة على وجهه، بدا حينها مهذبًا وودودًا.

حاولت أن أبتسم مجاملةً له، لكن بسمتي كانت مصطنعة. لم أستطع أن أكون طبيعية حينها. شعرت أن يوسف قد أحسّ بخجلي، فاستأذن وذهب بعيدًا.

استاءت نفسي كثيرًا من تصرفي.

وحين عدت إلى منزلي، أمسكت هاتفي المحمول وأرسلت له رسالة على الخاص، كتبت فيها: "أنا سعيدة جدًا بلقائك، لكن عندي خجل اجتماعي هو اللي منعني أكون ودودة معاك لما قابلتك."

أرسل لي "إيموجي" يبتسم، وقال:

_ كنت حاسس إنك مش طايقاني، وإنّي سخيف قوي، بس خلاص، فهمت إن مكانش قصدك.

سعدت جدًا برسالته.

ظللنا نتبادل الرسائل بعد ذلك، وأوضح لي أنه معجب بما أكتبه، وأن أفكاري تنال إعجابه منذ فترة طويلة.

كنا نتناقش سويًا في أمور الحياة المختلفة.

شعرت أن أخيرًا هناك أحد يفهمني، يشعر بي، ويقدّرني... بعكس زوجي، الذي دائمًا ما كان يهملني ويشعرني أني لا أفهم شيئًا.

_ راوية... راوية! بتعملي إيه كل ده عندك؟ كل ده واقفة قدّام الدولاب تختاري الهدوم اللي هتخرجي بيها؟

أخرجني نداء زوجي من أفكاري... لقد نسيت موعد زيارتنا لأخت زوجي وزوجها العائد من السفر للترحيب به.

ذهبنا إلى هناك، فرحبت بنا منال، أخت زوجي، وقالت لي إن أخت زوجها "هيام" موجودة أيضًا.

دعتنا أن نجلس معها قليلًا حتى تُحضّر بعض الطعام لنا.

كنت أعلم أن هناك علاقة عاطفية قد جمعت بين زوجي مصطفى وهيام منذ أن كانا في الجامعة، لكن أهل هيام أصرّوا على تزويجها لرجل غني يعرفونه، لأن مصطفى وقتها كان شابًا في بداية حياته ولا يملك شيئًا.

وجدت نفسي، بشكل لا إرادي، أقارن بيني وبين هيام، وكانت دائمًا تكسب المقارنة.

بدَت امرأة مكتملة الأنوثة، بعقل راجح ولسان طليق.

أما أنا، فكنت على النقيض: فتاة خجولة، منطوية، قليلة الكلام.

بدأ مصطفى يتحدث معها كأنني غير موجودة، حتى استرسلا في الحديث، إلى أن باغتها بالسؤال:

_ أومّال جوزك فين؟ هو مجاش معاكي؟

_ جوزي مين؟ أنا اتطلقت من سنة.

صُعقت حين سمعت ردّها.

وعندما علم مصطفى أنها مطلقة، بدا منفتحًا معها أكثر، وربما لم يخجل أن يغازلها مغازلة صريحة أمامي.

أما أنا، فلم أفعل شيئًا، سوى أني جززت على أسناني بضيق.

نظرت إليه بنظرات عاتبة، إن كانت هي قد طلقت، فأنت لا زلتَ متزوجًا!

لكنه لم يتوقف. لذا، غادرت المجلس متحججة بأني سأساعد منال في المطبخ.

ظل الوضع كذلك طيلة السهرة، لم يضع مصطفى أي اعتبار لوجودي، كان يلقي النكات على هيام، وهي تجامله ضاحكة ضحكة رنانة.

أما أنا، فلم أفعل شيئًا سوى أن أجزّ على أسناني، حتى عدنا إلى منزلنا.

في اليوم التالي، أشغلت شاشة التلفاز، وبدأت الحلقة الأخيرة من مسلسل "سارة"، تلك التي تُقرّر فيها الشخصية أن تعود إلى وضع الجنين وتترك هذه الحياة، بعد أن تكتشف أن الحياة غير عادلة، وأن الشر أقوى من الخير.

يحاول "حسن" جاهدًا أن يُثنيها عن قرارها، لكنها تُصرّ، وتعود فعلًا.

أبكي مع سارة، وعليها، وأشعر أني قد توحدت بها.

ثم أسمع صوت زوجي يناديني. لا أجيب.

يكرّر النداء، ويأتي إلى حجرة الجلوس، يجدني جالسة أمام الشاشة أبكي.

_ هو إنتِ غاوية نكد؟ الحاجات دي هي اللي بتكتئبك!

أنظر إليه بعدم اهتمام، ولا أُجيب.

ثم يقول:

_ يلا، عايزين نفطر أي حاجة.

عقب الإفطار وخروج زوجي، ذهبت لأخرج كيس القمامة من المنزل، فوجدت يوسف أمامي.

_ إيه ده؟ إنتِ ساكنة هنا؟

_ من زمان... إنت عزلت هنا؟

_ النهاردة أول يوم ليا في العمارة، يعني خلاص هنبقى جيران.

ابتسمت له.

رأيت في عينيه رغبة في الحديث، لكنه لم يقل شيئًا، ولم أفعل أنا شيئًا سوى أني ابتسمت له... وعُدت إلى منزلي.

****

* بعد شهر، وبينما كنت أنظف غرفة نومي، وجدت أمامي هاتف مصطفى. شعرت برغبة في أن أفتحه وأعبث به قليلاً.

وضعت الهاتف أمام وجه زوجي النائم، ثم فُتح.

بدأت أعبث في الرسائل، وكان هناك اسم واحد فقط أبحث عنه: هيام.

وجدته أخيرًا، فقد أخفاه زوجي في الأرشيف.

فتحت المحادثة، مصعّدة إياها، وشعرت بطعنة في قلبي حين رأيت كم يغازلها زوجي بشكل صريح.

ثم رأيت رسائل لم أفهمها للوهلة الأولى، حتى استنتجت أنها انطباعاتهما عقب مقابلة بينهما.

رغبت في البكاء، لكنني تمالكت نفسي، وأكملت تقليب الرسائل.

استنتجت أنهما خرجا عدة مرات.

لكن ما كنت أفكر فيه حقًا: هل حدث بينهما شيء أكثر؟

هل وصلت الأمور إلى علاقة كاملة؟

في تلك اللحظة أحسست أن زوجي بدأ يفيق.

تركت الهاتف من يدي، وخرجت من الغرفة سريعًا.

****

في المساء، وأمام الشاشة في حجرة الجلوس، أدارت الحلقة الأخيرة من مسلسل آسيا. تتحدث هذه الحلقة عن غرق ابن آسيا، حيث تعود لها الذاكرة بعد جلسات العلاج النفسي، فتصرخ منى زكي في مشهد مهم وهي تقول:

"أنا قتلته.. ماعرفتش أطلعه.. أجيبه منين دلوقت.. أجيبه منين؟!"

ثم نرى كيف غرق ابنها أمام عينيها، ولم تستطع أن تفعل شيئًا، إذ تغلق السيارة على قدمه، فلا يستطيع التنفس، ويموت الطفل. ومن شدة الصدمة تفقد آسيا ذاكرتها.

ظللت أعيد مشهد صراخها وبكائها الهستيري، ثم جاء زوجي ونظر إليّ في استياء:

_وبعدين في المسلسلات دي؟

_بحب أتفرج عليها.. عايزة أبكي

_ما تشوفي حاجة كوميدي بدل الغم ده.. شغّلينا اللمبي كده

لم أجب، بل نظرت إلى الشاشة وأكملت بكائي.

****

يوسف جالس أمامي في أحد المطاعم الفاخرة، بدا وسيماً كعادته، خاصةً في سترته البيضاء الجميلة.

نظرت إليه وأنا أتأمل جمال عينيه وقلت:

_وبعدين اتطلقت.. ماقدرتش أستحمل الخيانة أكتر من كده.

_أنا حاسس بيكي، عشان مريت بتجربة شبه اللي بتحكيها.. فضلت بعدها متعقد حوالي خمس سنين.

_بس أنا وضعي مختلف، قرار الطلاق مكانش سهل، تعبت أوي عشان أهلي، وأمي بالذات، يقبلوا إن بنتهم تبقى مطلقة.. دي حاجة مش سهلة.

_هو قرار شجاع منك طبعاً، بس إنت دلوقتي المفروض تركّزي في حياتك الجاية.. ناوية تعملي إيه؟

_أنا كان نفسي أكمل دراسات عليا، ونفسي أشتغل.

نظر لي يوسف وابتسم ثم قال:

_راوية، هو انت عندِك أصحاب؟

صمتُّ قليلاً ثم قلت:

_لا.. أو كان عندي أيام الدراسة.. بس دلوقتي كل واحدة فينا انشغلت في حياتها وبيتها.. لا، لا ماعنديش أصحاب.

ثم سمعت صوت مصطفى يقول:

_راوية.. راوية.. عمال أنادي عليكي من بدري، وإنتِ كالعادة سرحانة ومسهمة.

_عايز إيه يا مصطفى؟

_مش هناكل ولا إيه؟

_طيب.. جاية.

****

عقب أسبوع، وأنا أتصفح تطبيق الفايسبوك وجدت فجأة خبر خطبة يوسف، آه يا قلبي، شعرت أنها خيانة لي، تحطمت كل آمالي وبدأت أبكي

****

_ وبعدين.. حسيتِ بإيه يا راوية؟

- **اتخنقت.. كان نفسي يفضل كده، كنت عارفة إننا مش هنرتبط، بس على الأقل يعني يفضل موجود كده. أنا عارفة إنك مش هتصدقيني، بس حسيت بالخيانة.**
- **راوية.. مفيش أي علاقة بينك وبين يوسف، هو مجرد صديق عندك على الفيسبوك.**

بس أنا بحبه.

- **أنتِ حبّيتِ صورة رسمها عقلك عنه. إنتِ كنتِ طول الوقت بتتخيلي إنك في علاقة معاه، علشان مش قادرة تواجهي مشكلتك الحقيقية: إن مصطفى خانك. إنتِ بتهربي من الواقع بالخيال.**

نظرت إلى الشاشة أمامي، كنت أحادث معالجتي النفسية، لكن فجأة ظهر أمامي يوسف.

- **إنتِ بتيجي هنا يا راوية؟**
- **آه.. بقابل المعالجة بتاعتي.. صحيح، مبروك على الخطوبة.**

أتى صوت مصطفى من بعيد:

- **يلا يا راوية، عايز آكل.**

ثم أكمل يوسف قائلًا:

- **الله يبارك فيكي.. المهم، إنتِ عاملة إيه؟**
- **الحياة بعد الطلاق مش سهلة، بس أكيد ماكنتش هعيش مع واحد خاين.**

ثم سمعت صوت مصطفى مرة أخرى يقول:

- **وبعدين يا راوية؟ عايزة أنزل.. هتفضلي سرحانة ومسهمة كده كتير؟**

أخرجني صوت مصطفى من خيالاتي، فقمت أُعد له الطعام، وبدأ هو يأكل.

نظرت إليه:

إنني لا أحبه.

أنا أكرهه.

أحب يوسف.

أنا خائنة.

لكن يوسف ما هو إلا طيف في خيالي.

أنا أخونه في الخيال، وهو يخونني في الواقع.

إنه الخائن الحقيقي.

الحكاية الحادية عشر: شريك حياتي

نحن، أنا وهي وآخرون، جمعنا شيء واحد: حُب الفن، عشق المسرح، إنه المرض الذي لا نرغب في أن نُشفى منه. لا نعلم حقًا ما الذي يفتننا إلى هذا الحد، ربما هو إدمان تصفيق الجمهور، الجمهور الجالس أسفل خشبة المسرح، عيناه معلقتان على الواقفين فوقها. حين كنت صغيرًا، كنت أنظر إلى الأعلى وأحلم أن أكون هناك. هذا ما أتى بي هنا، وهذا ما أتى بها هنا. هنا المسرح، لكن حلم الصعود على خشبته لم يتحقق بسهولة كما كنا نظن حين كنا صغارًا.

****

مصر، منتصف السبعينات.

أنا الفتى القروي القادم من الريف، مبهور بأضواء المدينة وقبّة المسرح. حين كنت صغيرًا رغبت أن أكون ممثلًا، وحين كبرت قليلًا أدركت أن التمثيل ليس سوى المرحلة النهائية من الطبخة، لذا أردت أن أكون الطباخ نفسه. حينها، لم أكن أفعل شيئًا سوى الحلم.

في البداية، كنت محتاجًا إلى الأموال، وهذا ما جعلني أقبل أن أعمل مُلقِّنًا في المسرح حتى تأتي الفرصة وأصبح كاتبًا مسرحيًا. وكانت هي فتاة جميلة، أذكر أول مرة التقينا فيها، وكانت إحدى الفتيات المتقدّمات للعمل في المسرح. مثلها مثل كل الفتيات اللاتي يأتين إلى المسرح، كانت تحلم أن تكون ممثلة، ترغب أن تكون جذابة وملفتة.

لافتٌ لنظري كان ساقاها؛ كان لديها ساقان جميلتان، وأنا كنت من عشاق السيقان الجميلة، وهي نقطة ضعفي، والسبب في أن تتكوّن لدي تلك العادة المُشينة فيما بعد: كنت أتسلّل إلى أحد الثقوب المؤدية إلى غرفة تغيير الملابس للممثلات، أسترق النظر إليهن وأبدأ في تقييم كل واحدة منهن في عقلي، فأصبح رئيس لجنة مسابقة "ملكة جمال السيقان" بين الممثلات. وكانت المنافسة شرسة بينهن، لكن سميحة ـــ هذا اسمها ـــ كانت تفوز دائمًا.

****

دخلتُ إلى هذا المسرح وأنا فتاة يافعة، أحلم أن أكون ممثلة، وليس هذا فقط، بل أيضًا مطربة، فقد كان صوتي شجيًا. كنت حينها متيمة بشادية، ولا زلت في الحقيقة، فقد تغيّرت أشياء كثيرة فيَّ عدا حبي لشادية، الذي ظل كما هو رغم

انقضاء سنوات طويلة على ذلك الحلم. لم أرغب سوى أن أصبح مثل شادية؛ ممثلة ومطربة.

كنت أتعمد لفت الانتباه إليَّ بشتى الطرق، فأختار ملابسي بعناية شديدة؛ ألوان مبهجة وقصيرة تسرّ الناظر إليها، وقد كانت هذه سمة ملابس ذلك الزمن. وبالفعل، تمكنت من لفت انتباه مخرج العمل، فقد منحني الأستاذ اهتمامًا خاصًا. كنت وقتها أشعر أني أطير وكأن لي جناحين، لكن مع ذلك، لم يكن في كلامه ما يمكنني التمسك به. كلام الأستاذ كان رقيقًا ناعمًا، ينساب كالهواء، لكن لا أستطيع أن أُمسك منه بكلمة واحدة تعني هدفًا محددًا. ومع ذلك، أذكر ما كان يقوله لي حين يحب مغازلتي:

_ أحلى ابتسامة شوفتها في حياتي ابتسامتك... إنتِ عارفة، لو الواحد شايل هموم الدنيا وشاف ابتسامتك هينسى كل الهم... المفروض تمثّلي في السينما، الشاشة هتبرّوز جمال ابتسامتك.

كنت أستمع إلى كلماته بنشوى، فتغدو أجمل ما أسمعه في يومي، وحين يصمت عني يومًا، أتساءل إن كنت قد ارتكبت خطأ ما جعله ينفر مني.

وفي أحد الأيام، بينما كنت داخل غرفة تغيير ملابس الممثلات، مالت إلى أذني تفيدة وقالت:

_ ابقي خدي بالك وانتِ بتغيري، اللي ينشك في قلبه فوزي، مُلقّن الفرقة، ساعات بيبص على البنات.

فوزي... كانت هذه أول مرة أعرف فيها اسمه، أو ربما سمعته من قبل لكن لم أُعطه اهتمامًا. لم أكن حينها أتخيل أن فوزي سيكون هو شريك حياتي.

****

بدأ المخرج يلاحقها، وكنت أعلم أنها الفريسة الجديدة له. هكذا كانت عادته؛ يتصيّد الفتيات الصغيرات اللواتي جئن إلى المسرح من أجل حلم التمثيل. كنت أرى هذا الفيلم يتكرر باستمرار، ولم أكن أفهم لماذا يفعل الأستاذ ذلك. وإذا كانت المتعة هدفه، فأنا أعلم أن لديه نساء لمتعته الخاصة، لكن ما الذي يكسبه من ربح قلوب فتيات صغيرات ثم كسرها؟

بعد معاشرتي له وفهمي لطباعه، أدركت أن هذا الأستاذ المنتفخ لا يملأه سوى نظرات الإعجاب والانبهار من فتيات صغيرات في السن، لا خبرة لهن بالحياة.

فيكون لهن الأستاذ الذي يغدق عليهن نظرياته وآراءه، فتفتح كل فتاة فمها أمامه انبهارًا بسعة علمه وثقافته، بينما أضحك سرًّا كلما سمعته يكرر الكلام نفسه، إذ لم يقرأ طوال حياته سوى كتابين أو ثلاثة، ودائمًا ما يستشهد بهما. كنتُ أكثر ثقافة منه، لكن الحظ اللعين لم يمنحني وجاهة الأستاذ ولا كلماته المعسولة، ولا حتى الجرأة لمحادثة فتاة.

حين ابتعد الأستاذ عن سميحة بعد فترة قصيرة، بدأت أراقبها. كانت متحيرة، تائهة، مثل عصفور لا يعرف مكان عشه. ربما شعرت أنها جُرحت في أنوثتها. حاولتُ آنذاك التقرب من ملكة جمال سيقان المسرح، سميحة، لكني كنت أشعر في داخلي أني لا أعجبها.

مضت سنوات على دخولي المسرح، وما زلت ألعب الأدوار الصغيرة. أفقت منذ زمن من أوهامي بشأن إعجاب الأستاذ بي، وأدركت أني لم أعد أكثر من ممثلة ضمن الفرقة. في ذلك الوقت، بدأ فوزي، مُلقّن الفرقة، يتقرب مني. كان بدينًا، قصير القامة بشكل ملحوظ، يمشي باعوجاج بسيط، وأنفه مفلطح على نحو واضح. كنت أتندر عليه كثيرًا أنا وباقي الفتيات، لكن لأني كنت وحيدة وأرغب أن يستمع إلي أحدهم، تقربت منه.

أخبرني أنه مثلي، لديه حلم وينتظر فرصة كي يصبح كاتبًا. وحين سألته إن كان قد عرض أيًّا مما كتب على الأستاذ، أجاب أنه فعل ذلك مرارًا، لكن الأستاذ لم يُعجب بأي شيء مما كتبه. ومع ذلك، لم يخبره بأنه سيئ، بل كان يقول إنه يحتاج إلى تطوير نفسه وكتاباته أكثر. كان هذا قريبًا أيضًا مما يُقال لي: إنني ممثلة جيدة، لكن لستُ جيدة بالقدر الكافي لأصبح بطلة. كان هذا ما جمعني بفوزي: الحلم الذي لم يكتمل.

****

مرت الأعوام، كبرتُ وأدركتُ مدى بُعد حلمي عني. يبدو أنني سأقضي حياتي كلها أسفل الخشبة ألقّن الفنانين، لكن وجودي في المسرح كان يكفيني. يكفيني أن أشم رائحة الفن وإن لم أصنعه بيدي، وأن أستشعر المتعة من بعيد دون أن أتذوقها، وأنا أراقب الممثلات وهن يغيّرن ملابسهن. حتى فاجأتني والدتي ذات يوم بأنها تريد تزويجي. رفضتُ بشدة، ولا أدري لماذا كنت أرفض الزواج. أسترق المتعة بالنظر، لكن لا أريد أن أجرّبها بنفسي.

ثم قررتُ أن أتزوج أخيرًا، لكن ليس بفتاة من بلدتنا، بل فتاة بيضاء جميلة، ذات سيقان فاتنة. ولمَ لا تكون سميحة؟

مرت الأعوام، وبدأتُ أشعر بتهديد وخوف. جميع صديقاتي منذ أيام المدرسة تزوجن وأنجبن، عداي أنا، أطارد حلمًا مجهولًا لا أدري إن كان سيتحقق أم لا. ترددت في عقلي كلمات والدتي: "ستصبحين وحيدة حين تكبرين، يجب أن تلحقي بالقطار، قطار الزواج والإنجاب." كل فتاة يجب أن تحجز مقعدًا في هذا القطار، لا يهم مع مَن أو إلى أين يذهب، المهم أن نلحق به.

حينها طلب فوزي يدي. فوزي لم يكن يثير إعجابي، لكنه لم يكن يثير نفوري أيضًا. طالما أنه وافق أن أظل أعمل في المسرح، فلمَ لا؟

********* **

تزوجتُ أنا وسميحة. كانت لا تزال تحمل بقايا أمل وراء حلمها القديم. نعم، هي جميلة فعلًا، وحين أسمع صوتها وهي تغني، أدرك أن لها صوتًا طربيًا جميلًا، لكن هذا وحده لا يكفي لأن تكون نجمة. ومع الوقت، بدأت أكتشف عيوب سميحة؛ فقد كانت تعاني من عصبية شديدة، وحين تغضب من أمر ما، تفقد القدرة على التحكم في أعصابها، وتلقي نحوي بكلمات وألفاظ جارحة، وإن كان ذلك لا يحدث أمام أحد، بل فقط ونحن بمفردنا. كنت أتجاوز عن إهانتها لي، لكن ما كان يضايقني حقًا هو أنني علمتُ أنها تتندر عليّ أمام زميلاتها الممثلات. أثار هذا الأمر حنقي، أن تتخذني زوجتي مادة للسخرية. يبدو أنني أخطأت حين أعجبت بساقَي فتاة، فتزوجتها كلّها.

تزوجنا أنا وفوزي، قبلتُ به عملًا بنصيحة والدتي: "ظل راجل خير من ظل حيطة." لكن لم يكن في حسباني أن هذه "الحيطة" ستضعني في مواقف حرجة؛ فقد كنت أسمع الفتيات يتهامسن أنه يراقبهن وهن في غرفة تغيير الملابس. كنت أظن أنه بمجرد زواجنا سيكفّ عن هذه العادة المخجلة، لذا كنت أثور عليه محاولةً أن أجعله يتوقف عنها، خصوصًا وأنها بعد زواجنا أصبحت تقلّل من شأني أمام الناس. يبدو أنني نسيتُ حين تزوجته أنني أتزوجه بعيوبه أيضًا؛ فقد كان كسولًا جدًا، مترددًا وسلبيًا، غير قادر على اتخاذ أي قرار ولو كان بسيطًا

****

مرت السنوات، وبدأت سميحة تتقبل أن حلمها في أن تصبح نجمة لن يتحقق، لكنها راحت تركض خلف حلم آخر... حلم الأمومة. في بداية زواجنا لم تكن سميحة تهتم بموضوع الإنجاب، لكن بعد مرور سنوات دون حدوث حمل، بدأ الخوف يتسرب إليها من أن يمر العمر دون أن تنجب طفلًا. راحت تتنقل من طبيب إلى آخر، بينما لم أكن أنا مهتمًّا بالأمر بقدر اهتمامي بأن تكف عن إلحاحها.

تغيرت معاملة سميحة معي؛ فبعد أن كانت في السابق، حين تغضب مني أو تريد أن تُرغمني على تنفيذ ما تريد، تهمل في نظافتها الشخصية وتترك شعر جسدها عمدًا حتى أنفر منها، صارت الآن تحاول استدراجي إلى العلاقة الزوجية، فقط من أجل ذلك الطفل. كنت أحرج من تجاوبها، لكني لم أشأ أن أجرح أنوثتها، فكنت أستجيب لها. ومع ذلك، لم يساعدني كل هذا على التوقف عن عادتي المشينة.

حتى جاء اليوم الذي غيّر حياتي. كنت أتسلل، كعادتي، لأتجسس على بطلة العرض ـــ فتاة تصغرني بسنوات كثيرة ـــ وقد أصبحت نجمة العمل. لا أدري كيف رأتني، لكنها رأت... رأت البلل في ثيابي، وصرخت في وجهي بصوت عالٍ، حتى تجمّع جميع العاملين في المسرح، وبينهم زوجتي سميحة، وهي توبخني أمام الجميع:

ـــ هو أنا مش قلت مش عايزة أشوف الراجل ده؟! يا أخي عيب على شيبتك لما تبص عليا وأنا بغير هدومي وينزل منك القرف ده! انت فاكر نفسك فين؟! أومال إذا ما كنتش متجوز... انت لازم تمشي من هنا!

استمعت إلى كلماتها ورأسي منكّس. للحظة، تلاقت عيناي بعيني زوجتي، فرأيت فيهما نظرة عار وخزي. وإن كانت هي تشعر بذلك، فلا ألومها؛ فأنا كنت أشعر بما هو أشد... كنت متعرّيًا تمامًا، بلا أي غطاء أو كرامة. احمرّ وجهي خجلًا وانتهى الأمر بأن غادرت العمل.

رأف المخرج بحالي وحاول مع المنتج والبطلة أن لا يطردوني، لكن كان يجب أن أرحل. لم يعد لي مكان في المسرح، ولا أستطيع أن أرفع عيني في وجه زملائي بعد الآن. بالفعل تركت المسرح، بينما بقيت سميحة تعمل فيه؛ كنا في حاجة إلى المال.

كنت أتوقع أن تخجل مني سميحة، فقد عرفتها دومًا تعتز بنفسها وكرامتها، لكنها سامحتني على غير عادتها، بل وجدتها فرِحة. أخبرتني حينها أنها حامل، وأنني والد طفلها القادم... وأنها لن تتركني وحيدًا.

****

بعد الفضيحة التي وقعت في المسرح، لم يستطع فوزي أن يستمر في عمله هناك، حفاظًا على ما تبقى من ماء وجهه. بدأ يحاول أن يعطي دروسًا في اللغة العربية، لكن هذا لم يكن التغير الوحيد الذي طرأ عليه. لاحظت أنه صار أكثر التزامًا، يواظب على الصلاة، لكن بشكل مبالغ فيه؛ يقضي وقتًا طويلًا في الوضوء، ويأخذ أكثر من ساعتين في الاستحمام حتى أضطر أن أناديه بنفسي ليخرج من الحمام. حتى أنا، زوجته، لم يعد يقترب مني إلا نادرًا، وكأني أصبحت محرّمة عليه.

لا أدري ماذا أصابه، وكأن كلمات نجمة العرض على خشبة المسرح ما زالت تلاحقه، تشعره بأنه دائمًا غير طاهر. كنت ما أزال أعمل في المسرح، أؤدي الأدوار الصغيرة، إلى أن جاء يوم كان فيه عرض لمسرحية ريا وسكينة. ذهبت وشاهدت العرض، وهناك قابلت شادية... يا الله، لقد كبرت شادية كثيرًا، كما كبرت أنا. طلبت منها صورة تذكارية، وحين أخذتها شعرت كأنني حصلت على كنز. عدت إلى بيتنا وأخبرت فوزي أنني رأيت شادية بنفسها، لكنه لم يبدِ أي اهتمام، كأنه لم يعد يسمعني أصلًا.

وضعت الصورة في برواز واحتفظت بها حتى اليوم. استمرت حياتي مع فوزي، ومع الوقت كفَّ عن عاداته الغريبة في الوضوء والاغتسال لساعات، لكنه ظل ملتزمًا، يعمل مدرسًا للغة العربية. أما أنا، فقد تركت المسرح، وبدأت أخذ دروسًا في الدين، ثم تحجبت. أنجبت ولدًا أسميته يوسف، وفتاة جميلة أسميتها شهد. وبعد سنوات، توفيت أختي، فجاءت ابنتها نور لتعيش معنا في بيتنا.

كان كل شيء يسير على ما يرام... حتى جاء اليوم الذي اكتشفت فيه أنني مريضة بسرطان الثدي، وأنه يجب أن أجري عملية لاستئصال الثدي.

****

بعد أن كبر الأولاد، لم يبقَ في حياتي سوى زوجتي، وتدريس اللغة العربية، وأولادي... حتى جاء اليوم الذي عرفت فيه أن سميحة مصابة بسرطان الثدي. حين نطق الطبيب الخبر، شعرت وكأن قلبي انتُزع من مكانه خوفًا.

سميحة؟ لا... كيف ستكون حياتي أنا وأولادي من دونها؟

بدأت أستدين من كل شخص يمكن أن أقترض منه، حتى جمعت مبلغ العملية. لكن كانت هناك مشكلة أكبر: كيف أقنع سميحة بالخضوع للجراحة، وهي التي تعتز بأنوثتها وقوامها أيّما اعتزاز؟ كان لا بد أن أقنعها.

قلت لها:

– إنتِ خايفة من إيه؟... إنتِ عارفة أنا أصلاً اتجوزتك ليه؟ عشان كنت معجب برجليكي... أي حاجة تانية ما تهمنيش.

ابتسمت سميحة نصف ابتسامة ساخرة، فأكملت:

– ولا فاكرة إني هقولك عاجبتني ابتسامتك ولا سحر ضحكتك وعينيكي... والكلام الصايص بتاع الأستاذ ده؟

ابتسمت مرة أخرى، لكن هذه المرة حاولت إخفاء ضيقها. في النهاية، اقتنعت بإجراء العملية.

بعدها، صرت أرافقها في جلسات العلاج الكيماوي. كانت تتعذب أمامي، وأنا عاجز عن أن أفعل لها شيئًا سوى أن أواسيها بكلمتين، وهي كانت حمولة، تتحمل تعب المرض بصمت، وتغطيه بابتسامة حزينة أمام أولادنا... حتى مَنَّ الله عليها بالشفاء.

لكن سميحة تغيّرت كثيرًا بعد هذه الأزمة. أصبحت أكثر تشددًا في تربية الأولاد، وخصوصًا شهد. يوميًا لا أسمع سوى صوتها وهي تتشاجر معها لأن ملابسها لا تعجبها. وكنت، حين أتذكر ما كانت ترتديه سميحة وهي في عمر شهد، أضحك من سخرية القدر.

بل إن شهد نفسها قالت لها مرة إن ملابسها التي ترفضها لا تُقارن بملابس سميحة في السبعينيات. لكن رد سميحة جاء سريعًا ومعتادًا:

– الزمن بقى غير الزمن.

كنت أعلم في داخلي أن سميحة، بعد محنة مرضها، صارت تظن أن الله عاقبها على ملابسها الفاضحة في شبابها، ولهذا تشددت مع ابنتنا. حاولت كثيرًا أن أخفف عنها:

– خفي شوية على البنت... لسه سامعها بتقول لصاحبتها: خايفة أكبر وأبقى زي ماما. إنتِ بقيتي بعبع بالنسبة لها.

سكتت سميحة للحظة، ثم قالت:

– أنا بعمل كده عشان خايفة عليها.

****

كبرتُ، وكبر بجواري فوزي، وكبر أولادنا.

جلست أنا وفوزي ذات مساء أمام التلفاز، كانت تُعرض مسرحية "ريا وسكينة".

ملتُ قليلًا نحوه وقلت:

– فاكر المسرحية دي؟ أنا حضرتها بنفسي وقتها... يوم ما اتصورت مع شادية.

ابتسم وقال:

– أيوه فاكر... ده إنتِ الفرحة ما كانتش سايعِك يوميها.

تنهدت وقلت:

– بس معقول تبقى دي نهايتها؟ زمان كان نفسي أمثّل على خشبة المسرح... وأهو النهارده آخره أقعد على الكنبة أتفرج.

ابتسم فوزي محاولًا التخفيف عني:

– دي أحلى حاجة في جوازنا... قعدة الكنبة دي.

وبينما نحن نتحدث، دخل يوسف ابننا، وملامحه توحي بأنه على وشك أن يقول شيئًا مهمًا. ثم فجّر المفاجأة:

– أنا النهاردة قدّمت في معهد الفنون المسرحية... قسم تمثيل.

سهمتُ أنا وفوزي للحظة، لكن رد فعل فوزي كان عنيفًا. اندلعت بينهما مشاجرة كبيرة، وأصرّ فوزي أن يترك يوسف المعهد، بينما أصر يوسف على قراره... ثم ترك البيت بدلًا من أن يترك المعهد.

يا الله... هل لعنة حب المسرح ستظل تلاحقني أنا وأولادي؟ كنت أعلم أن سبب غضب فوزي الحقيقي هو خوفه أن يصبح يوسف مثله.

غادر يوسف المنزل، ولم يعد لأكثر من شهرين.

تذكرت أيامي وأنا أتنقل بين الأطباء أبحث عن سبب يمنع الحمل... وتساءلت: أكان خيرًا لي أن أبقى بلا أولاد، بدلًا من أن يكون لي ابن لا أعرف له مكانًا؟

حين عاتبت فوزي على ما فعله، قال لي:

– أنا بعمل كده عشان خايف عليه.

لكن في النهاية، قبِل بالأمر الواقع، ولم يسعنا إلا أن نتمنى أن يكون حظ ابننا أفضل من حظنا.

مرت السنوات، تزوجت ابنتي، ثم ابنة أختي التي ربيتها، وغادرتا المنزل. أما يوسف، فبعد أن أنهى دراسته، بحث عن منزل مستقل قريب من المسرح الذي يعمل فيه.

لم يبقَ في البيت سوى أنا وفوزي، نجلس معًا أمام التلفاز.

أجلس بجواره على الأريكة، نمسك أيدي بعضنا، ونضحك سويًا على إحدى المسرحيات المعروضة.

الحكاية الثانية عشر: الموت يصل غداً

تدور أحداث قصتنا في سوريا عام 2014، عقب اندلاع الأزمة السورية. أبطال قصتنا هم ثلاث فتيات: الكبرى فيروز وتبلغ من العمر اثنين وعشرين عاماً، والوسطى نجلاء وتبلغ من العمر سبعة عشر عاماً، والصغرى ريما وتبلغ من العمر سبع سنوات. توفى والدهن منذ عدة سنوات وترك لهن محل بقالة تديره والدتهن، السيدة نوارة، البالغة من العمر أربعة وخمسين عاماً. ورثت الأم عن والدها المحل، لكنها الآن ذهبت لتبحث عن مشتري له، ثم ستحاول إيجاد مشتري للمنزل، وذلك لتجمع المبلغ المطلوب كي تسافر هي وبناتها خارج البلاد.

****

فيروز، الابنة الكبرى، منذ اندلاع الحرب سيطر عليها وسواس الموت. بعد أن نزلت قذيفة على بيوت أصدقائها وماتوا، وأصبح صوت الهاويات والقذائف معتاداً في الشوارع، نظرت إلى أختها نجلاء وقالت:

_ "إمك اتأخرت كتير.. خايفة يكون صار معها شيء."

لم تجبها نجلاء وبدا أنها لم تسمع ما قالت لها أختها، فقامت فيروز بخلع نعلها ورمته على أختها صائحة:

_ "هاي عم بحكي معك!"

اهتز جسد نجلاء وقالت:

_ "لك فزعتيني."

قالت فيروز:

_ "عم قلك إمك اتأخرت برة.. خايفة يكون صار معها شيء."

ردت نجلاء:

_ "إختي، أنتِ بس حدا فينا يخرج بتدي تخافي وتفكري إنه صار معه شيء. نزلت قذيفة على راسه؟ قال يعني القذائف بتنزل في الشارع بس؟ هون الأمان بيخزي العين."

أثناء حديثهما، دق باب المنزل، ذهبت فيروز لتفتحه قائلة:

_ "بلكي تكون إمك رجعت."

وحين فتحت الباب، لم تجد أمها، بل وجدت العم بسام، وقد عرفت أنه جاء ليشتري بعض متطلبات بيته من محل البقالة الخاص بهم.

قالت:

_ "أهلين عمو بسام.. كيفك؟"

رد بسام:

_ "منيح يا بنتي، إنتِ أشلونك وأشلون إمك وإخواتك؟"

قالت فيروز:

_ "بخير عمر.. تفضل ادخل."

قال بسام:

_ "لا بنتي، ما بدي أقل عليكم، بس بعذبك معي، بدي هاي الطلبات من محلكن."

ثم أخرج ورقة صغيرة وأعطاها لفيروز مكتوب عليها طلبات منزل. أخذتها منه وسألته:

_ "إيه بس، أنت ما دفعت مصاري الطلبات يلي أخذتهم امبارح وكمان أول امبارح. يعني هلأ كمان ما شايفة معك مصاري؟"

قال بسام:

_ "معلش بنتي، الحالة هاليومين وافقة. إنتي بتعرفي إني كنت بشتغل مصور والمنتجين هلأ بطلوا ينتجوا شي، أو بيروحوا على بيروت، بس يطلبون حدا بشي فيلم أو مسلسل. راح أسدد كل شي، وإذا ما أخذت شيكك، والله راح أنا ومرتي وولادي من الجوع."

صمتت فيروز برهة ثم قالت:

_ "ماشي عمو.. تكرم عينك.. هلا بجهز لك الأغراض."

وهي داخلة متجهة إلى محل البقالة في أحد غرف المنزل، غمزتها نجلاء وهمست قائلة:

_ "لك شو عم تعملي.. هاد مع عم يدفع شي؟"

ردت فيروز:

_ "آه غصباً عنه.. ما نا شايفة الحال واقف مع الكل."

قالت نجلاء:

_ "إختي، ما إحنا من ضمن هاد الكل يلي الحال وافق؟ لك إحنا في عرض كل فرانك."

قالت فيروز:

_ "إختي الناس كل يوم عم تموت.. بلكي بنموت بكرة.. على الأقل بنطلع لربنا وإحنا عاملين شي لآخرتنا."

ردت نجلاء:

_ "هاد إذا موتنا.. لكن إذا عشنا راح نكون بحاجة مصاري."

قالت فيروز:

_ "إذا عشنا بنكون سافرنا مثل ما إمك مخططة. وزيحي عديني من هون، اتأخرت على الرجال بدل ما تشتغل الشحاطة تاني."

ثم ذهبت فيروز وأحضرت طلبات العم بسام، وشكرها وذهب.

بعد دقائق، سمعوا صوت ريما وهي تصرخ وتجري نحو أخواتها، نظرت لها الفتاتان بذهول ثم قالت ريما:

_ "قذيفة! قذيفة!"

ثم دخلت تحت الطاولة. زفرت نجلاء بضيق:

_ "مو كل ما تسمعي صوت قذيفة تجي تتخبي تحت الطاولة. لكي شو عم يعملوا ولاد الجيران اللي بعمرك بيروحوا بعد كل قذيفة يعدوا الشظايا تبعتها."

نظرت لها فيروز بحنق:

_ "نجلاء، لا تتمسخري على أختك، هي من وقت ما ماتت رفيقتها ميسون، صارت هيك."

ثم ذهبت فيروز إلى المطبخ وأحضرت غطاء أحد الحلل الكبيرة وأعطته لريما قائلة:

_ "حطي هذا فوق رأسك ميشان إذا نزل الهاوي لا يأذيك."

أخذته ريما ووضعته فوق رأسها، ثم نظرت نجلاء باستهزاء إلى فيروز:

_ "والله يا فيروز خانوم.. مين فينا هلأ عم تتمسخر على أختها؟"

ردت فيروز:

_ "إنتِ شو بدك فيها؟ خلي هذا الغطاء يعطيها إحساس بالأمان ولو كان مزيف."

فُقطعت الكهرباء. صاحت نجلاء:

_ "يا الله! النور قطع، ما لحقت اشحن موبايلي!"

ردت عليها فيروز:

_ "هذا بس اللي فكرتِ فيه؟ ما فكرتِ في أمك اللي ما إجت لهلأ؟"

جاءت ريما تجري خائفة، احتضنتها فيروز، فقالت ريما:

_ "أنا خايفة كتير."

طمأنتها فيروز:

_ "ما تخافي.. راح روح أجيب موبايلي وأفتح الكشاف."

وذهبتا سوياً، حينئذ تسلّقت نجلاء فوق سطح المنزل لتقابل يزن، جارها وحبيبها السري. أخذت جوالها معها مستغلة قطع النور، نظرت عن يمينها ويسارها باحثة عنه.

_ "لك وينه هاد الجحش؟"

فجأة ظهر أمامها، فشهقت خائفة:

_ "لك رعبتني.. مو اتفقنا كل ما تقطع الكهربا نتقابل هون؟"

ابتسم لها يزن، ثم تقدم نحوها وحرك خصلة من شعرها كانت على وجهها، ووضعها خلف أذنها، ثم همس فيها قائلاً:

_ "اشتقتلك كتير."

اقترب يزن من أنفها حتى شعرت نجلاء بأنفاسه تقترب منها، وقالت بصوت منخفض ورقيق:

_ "أنا كتير متضايقة.. إمي مصرة تبيع كل شي ونسافر."

اعتدل يزن ورجع إلى الخلف وزفر بضيق قائلاً:

_ "إن شاء الله ما تلاقي حدا يشتري منها البيت والدكان.. أصلاً مين معه ليشتري؟"

ردت نجلاء:

_ "امبلا في.. هلأ راحت لحدا حتى تبيع الدكان.. وبعدين مو كل الناس خسرت مصاري بالأزمة.. في ناس اغتنت منها."

بعصبية شديدة سألها يزن:

_ "شو بتقصدي بهاد الكلام؟ بتقصدي أبي؟ ما هيك.. أصلاً ما وفقت عليكن.. كل الحارة عم تقول أبي تاجر حرب وإنه عم يتربح من الناس يلي عم نتخطف."

قالت نجلاء:

_ "يزن حبيبي.. كرمالي ما تزعل مني."

اقترب منها يزن وضمها بذراعيه، ولفّت هي ذراعيها حول رقبته، واقترب من فمها ولامس شفتيها، وبدأ في تقبيلها حتى سمعا صوتاً قادماً من خلفهما، ومع كشاف نور سطع أمامها، إذ بها أختها الكبرى فيروز تصيح قائلة:

_ "لك شو عم تعملي؟"

تفلتت نجلاء من حضن يزن، وتراجع يزن عدة خطوات إلى الخلف. تنظر فيروز إلى يزن وهي تقول:

_ "يا عيب الشوم عليك.. والله لخبر أهلك!"

قال يزن:

_ "لا تفهمينا غلط يا فيروز.. أنا بحب نجلاء وبدي أتجوزها.. بس ترجع أمك وبطلب إيدها."

قامت فيروز بخلع نعلها ثم رَمته عليه قائلة:

_ "بلا حب بلا بطيخ.. انقلع من هون!"

هرب يزن، والتقطت فيروز نعلها ثم جرّت أختها من ذراعها إلى الطابق السفلي، وهي تقول:

_ "مشي قدامي.. رزق الله لو كانت أمك هون وشافتك!"

نزلت الفتاتان إلى الأسفل، ثم عاد التيار الكهربائي مرة ثانية. صاحت ريما فرحة:

_ "إجا النور.. إجا النور.. فيروز بدي أكل، جوعانة!"

تذهب فيروز إلى المطبخ لتعد الطعام لأختها الصغرى ريما، وهناك تلحقها نجلاء.

_ "فيروز الله يخليكِ.. لا تخبري إمك بشي."

نظرت لها فيروز باستياء ولم تجب.

_ "الله يخليكِ فيروز.. الله يخليكِ."

_ "إذا كنتِ بتعرفي إنك غلطتِ.. ليش عملتيه؟"

(صوت قذيفة)

صرخت ريما ثم اختبأت أسفل الطاولة كما علمتها فيروز.

_ "لك ما عم تسمعي أصوات القذائف بكل مكان.. ما فكرتي كيف بدك تقابلي الله؟"

صمتت نجلاء قليلاً وهي تساعد أختها في رص الأطباق، ثم قالت بعد تردد:

_ "أختي، راح قولك شي بس ما راح تفهميني."

_ "شو بدك تقولي؟ قولي وخلصينا."

_ "أنا أصلاً قبلت بوسه.. لأني مو ضامنة إني أعيش. كل يوم عم نسمع عن حدا بيموت من القذائف، وحتى يلي بيسافروا مش كلهم بينجوا. في اللي بيموتوا في العبارات.. ما قدرت.. خوفت أموت بدون ما بوسه.. فكري هيك.. راح نعيش حياتنا ونموت بدون بوسة واحدة."

قالت فيروز:

_ "بالله شو؟ إذا هيك الناس تمشي تعبط وتبوس بعض لأنهم ممكن يموتوا بأي لحظة؟"

خرجت فيروز ومعها نجلاء، ووضعتا الأطباق على السفرة، ثم نادت نجلاء على ريما كي تأكل معهن. بدأت الفتيات الثلاث كل واحدة تأكل حتى قالت فيروز:

_ "ليش إمي اتأخرت كل هالقد؟ ليكون صارلها شي بقذيفة.. موبايلها مشحون؟"

أجابت نجلاء:

_ "أنا لسه ما شحنتُه."

وقالت ريما:

_ "اشترو لي موبايل عشان أشحنه."

قالت لها فيروز:

_ "اخرسي يا، شوي بشوف موبايلك وأكلمها، وإذا ما ردت، يمكن أطلع أدور عليها."

علقت نجلاء:

_ "لا فيروز.. الله يخليكِ.. خليكي معنا."

ثم قالت ريما:

_ "ما تتركوني لحالي."

****

عقب تناول طعام العشاء، نهضت الفتيات وقمن بترتيب الطاولة، وقامت نجلاء بغسل الصحون في المطبخ، أما فيروز فظلت تتصل بأمها دون أن تتلقى أي رد، فصاحت قائلة:

_ "قلبي نإذيني يا بنات.. أمكم ما عم ترد."

ردت عليها نجلاء من المطبخ:

_ "لا ينشغل بالك، أختي.. يمكن فضيت البطارية.. بتعرفي أمك بتنسى تشحن موبايلها."

قالت فيروز:

_ "ما أنتِ على قلبك مراوح.. مو شايلة هم غير هم التبويس ومادري شو."

ثم حاولت الاتصال مرة أخرى لكنها اكتشفت أن رصيدها قد نفد، فصاحت:

_ "يا الله خلصت وحداتي.. هلأ شو بعمل؟"

توقفت أمام المطبخ وقالت:

_ "نجلاء، فصعونة.. ما معك وحدات؟ أكيد هاد القرد يزن عم يعبيلك وحدات، لكيف كيف عم تحكوا؟"

أجابت نجلاء:

_ "وحداتي خلصت، أختي.. وأنا ويزن متفقين بس يقطع النور نتقابل."

قالت فيروز:

_ "يا ما شاء الله عليكم.. لك النور بيقطع أكتر ما بيجي."

بعد انقضاء نصف ساعة، جاءت ريما إلى فيروز، أختها:

_ "فيروز الله يخليك، بدي نام.. خايفة أنام لحالي، تعي نامي معي."

ردت فيروز:

_ "أنا بدي أظل هون على الباب أستنى أمك."

قالت ريما:

_ "تعالي نامي معي، وبس ماما تيجي تبقى تدق الباب."

زفرت فيروز بضيق:

_ "ماشي.. مشي قدامي."

ثم ذهبتا إلى غرفة ريما، نامت ريما في المنتصف وفيروز على يمينها، ثم لحقت بهما نجلاء لتنام على يسارها.

(تنقطع الكهرباء)

فيروز:

_ "يا الله، قطعت الكهرباء تاني."

ثم نظرت إلى نجلاء قائلة:

_ "شو جابك هون؟"

ردت نجلاء:

_ "خايفة نام وحدي، أختي، قلت بتونس معكن."

قالت فيروز:

_ "إي، اتونسي معنا.. أحسن ما تتونسي مع يزن."

صاحت ريما:

_ "شو خصه يزن؟"

ضحكت فيروز بسخرية وقالت:

_ "ولا شي بس بيخاف من العتمة."

احمر وجه نجلاء وهي تحاول أن تغير الموضوع:

_ "تفتكره راح نقدر نسافر من هون؟ أنا كتير راح أشتاق للشام."

قالت فيروز:

_ "ليش وين هي الشام.. ووين هي الحياة هون؟ هون ما في حياة.. يا إما نموت ع السريع بالقذائف، يا إما على بطء من المي الملوثة والبرد بعد ما قل الغاز والمازوت. هون ما في حياة."

قالت نجلاء:

_ "خايفة من الموت يا فيروز."

ردت فيروز:

_ "الموت موجود بكل مكان حتى.. معظم يلي بنعرفهم ماتوا.. كل يوم عم قول لحالي بلكي الموت جاي بكرة، بلكي النهاردة آخر يوم في حياتي."

نظرت فيروز إلى ريما، فوجدتها قد نامت وهي ممسكة بيدها، وغمضت نجلاء عينيها، وحاولت فيروز أن تنام هي الأخرى، فنام الثلاثة بجوار بعضهن.. وفجأة صرخت ريما

عادت الأم نوارة بعد أن وجدت مشتريًا للمحل وكمان المنزل، ظلت تفكر في الأموال التي جمعتها فوجدت أنها كافية كي تسافر، ثم سمعت أصواتًا عند دخولها إلى الحارة، اتضح أنها أصوات صراخ، يبدو أن هناك قذيفة سقطت في الحارة، ثم عرفت أن قذيفة سقطت على منزلها، بدأت تصرخ وتنادي على بناتها وحاولت أن تنقلهن إلى الإسعاف، لكن البنات الثلاثة توفّين في الحال، وبقيت الأم وحيدة ولم تغادر الشام على أمل أن يأتي الموت غدًا فترى بناتها مرة أخرى، الآن لم تعد تهرب من الموت، بل أصبح الموت هو وسيلة المواصلات الوحيدة كي ترى بناتها.

الزحام، والأصوات الصادرة عن السيارات، والضوضاء القادمة من كل اتجاه، والشمس الحارقة، والجو الحار؛ كل هذا يحيط بي وأنا جالسة في سيارتي أنتظر الإشارة كي تفتح. أخرجت هاتفي كي أضيع بعض الوقت في العبث به، فوجدت رسالة من رئيس التحرير على تطبيق الواتساب، على مجموعة الجريدة، يرغب فيها في التعجيل بتسليم التقارير الخاصة بنا. كان تقريري عن الأطفال المشردين، فكرة قديمة، لكن يجب أن أبحث عن زاوية جديدة كي أكتب بها الموضوع. وإذ بي أرى طفلًا صغيرًا عند الإشارة، مثل جميع هؤلاء الأطفال الذين نراهم يوميًّا، أتى إلي وطلب أن أشتري منه إحدى علب المناديل التي يبيعها، لكني فاجأته واشتريت منه كل ما معه، وابتسمت له محاولة أن أفتح معه حديثًا. كانت نظرات الطفل جامدة، ليس بها أي تعابير؛ لا يبدو عليه الفرح أو الاندهاش أو الحماسة. يا الله! يجب أن أعرف قصة هذا الطفل. فجأة، فُتحت الإشارة، فانطلقت بسيارتي وعزمت على أن آتي غدًا مرة أخرى وأفتح حوارًا أكثر عمقًا معه.

****

في اليوم التالي، وفي طريقي عائدة من الجريدة، كنت أبحث بعيني عن هذا الطفل. تُرى أين هو؟ حتى وجدته، وظللت أراقبه بنظري حتى أتى إليّ. ومثلما فعلت أمس، طلبت منه أن أشتري كل ما معه، ثم سألته:

- **اسمك إيه؟**
- **علي.**
- **اسمك حلو يا علي.. عندك كام سنة؟**
- **مش عارف، بس أنا عايش بقالي كتير.**

ذكرتني إجابته بنكتة سخيفة كان يقولها زميلنا نادر في الجريدة، لكن الطفل لم يكن يمزح؛ إنه لا يعلم كم عمره. أعتقد أنه لا يتجاوز السبع سنوات. نظرتُ إلى الطفل، ولأول مرة ابتسم. لم أصدق أنه يبتسم لي! لقد خرج عن تعبيراته الجامدة وابتسم لي لثوانٍ، ثم قال:

- **وإنتِ اسمك إيه؟**

نظرتُ له وقد وضعت يدي على كتفيه، ورأيت كم تغيّر تعبير وجهه حين لمسته. شعرت في البداية أنه انزعج من فعلي هذا، لكني أدركت لاحقًا، حين دققت النظر في وجهه، أنه غير مصدّق أن أحدًا لمسه. فأجبت سؤاله:

- **أنا اسمي أمل.. ممكن نتكلم شوية سوا؟**

نظر لي علي قليلاً، ثم عاد إلى وضعه الطبيعي، الوجه الخالي من أي تعبير. وفجأة، جرى بعيدًا عني، حينها غلى الدم في عروقي وقلت في نفسي: بعد كل ما فعلت معه، جرى مني دون أن آخذ أي معلومات منه! وددت لو أنني لم أشترِ منه شيئًا، وددت لو لم أضيع وقتي معه، وددت لو لم أختَر هذا الموضوع المستهلك من الأساس.

حتى مضى الوقت، وحين فتحت الإشارة وأنا داخل سيارتي، قمت بتشغيل بعض الأغاني، ولمحت من بعيد علي وهو ينظر إليّ. ظللت أنظر إليه، وتمنيت أن يأتي، لكنه لم يقترب. زفرت بضيق، محدثة نفسي:

- **هو أنا هشحته! ده أنا كنت هساعده! يلا مش وش نعمة.**

حينها رأيت علي يقترب مني. ابتسمت له علّه يتشجع ويأتي إلي، لكنه ظل ينظر لي في بلاهة حتى وددت صفعه.

- **ما تخلص بقى يا له! ما كانتش حتة موضوع اللي هيحوجني أتعامل مع الأشكال دي.**

لكنني حافظت على ابتسامتي له. وجدته يقترب ببطء نحوي، فسعدت بذلك، لكن الإشارة كانت قد فُتحت، وبدأت السيارات من خلفي تزمر لي حتى أتحرك. لم أستطع أن أقف وأتحدث معك يا علي، ربما نتحدث معًا غدًا. وابتسمت له كي أودّعه: إلى اللقاء يا علي.

****

في اليوم التالي، وقفت في تلك الإشارة أبحث عن علي بنظري حتى وجدته. ابتسمت له تشجيعًا كي يأتي إليّ، لكنه لم يتحرك. ضاق صدري منه، لكني ظللت أبتسم، حتى أخيرًا رقّ عليّ وأتى، وكالعادة اشتريت منه كل ما معه، قائلة في نفسي:

- **على الله يتطمر فيه ويتكلم.**

أعطيته المال وابتسمت له، وقلت:

- **ينفع نحكي مع بعض شوية؟**

وجدت أن عينيه تحملان تعبيرًا لأول مرة، لكن لم أستطع أن أفهمه، وفجأة جرى بعيدًا عني، حتى صرخت في سري:

- **آه يا ابن الكلب!**

ظللت على هذه الحالة الغاضبة مدة عشر دقائق، وأنا أتساءل كيف يخدعني طفل صغير هكذا. فجأة سمعت نقرات على زجاج سيارتي، فنظرت، فإذا بي أرى علي. وددت نهره بشدة على وضع يديه المتسختين على زجاج سيارتي، لكني انتبهت أنه قادم نحوي ومعه طعام، يبدو أنه اشتراه من المال الذي أعطيته له، ثم أخرج جزءًا منه وقدمه لي على سبيل المشاركة. حاولت أن أخفي قرفي من يديه المتسختين، وشكرته بلطف على كرمه معي، ثم كررت طلبي مرة أخرى أن نتحدث سويًا.

نزلت من سيارتي بعد أن ركنتها، وتمشيت معه قليلاً، وكنت حذرة جدًا، خوفًا من أن يسرق حقيبتي أو الهاتف الذي أسجل به الحوار، وسألته:

أنت بقى يا علي بتنام فين لما تخلص شغل؟

أشار إلى الرصيف قائلًا:

- **بنام هنا.**
- **ليه؟ فين بيتك؟**
- **سيبته من زمان.**
- **ليه سيبته؟**
- **عشان جوز أمي بيضربني جامد.**
- **طب ومامتك؟**
- **بتضربني هي كمان.**

انتبهت إلى أن نبرته تبدو كأنها نبرة كبار وليس طفل، وأكملت:

- **طب جبت منين المناديل اللي بتبيعها؟**
- **في راجل بيجي يوزعها علينا، وبعدين يشوف بيعنا قد إيه.**
- **تعرف اسمه؟**
- **لا، ما أعرفش.**
- **طب وبتكسب كويس من بيع المناديل؟**
- **لا، مش كتير. معظم الناس لما بروح أبيع لهم محدش بيرضى يشتري، واللي بيشتري قليل. بس أغلبهم محدش بيعبرني، يعني بفضل أمشي وراهم بعلب المناديل، بس هما مش بيبصولي، زي ما يكونوا اتعموا مش شايفني، ولا اطرشوا مش سامعين. انتِ بس اللي بصيتي عليا.**

فجأة شعرت بطعنة في قلبي. لقد شعر الطفل أنني الوحيدة التي شعرت بوجوده، فالجميع يتجاهله وكأنه غير موجود. حتى أنهم لا يرفضون الشراء منه، بل يتجاهلون وجوده بشكل كلي، بينما أنا كنت أنظر إلى هذا الطفل وأبتسم له من أجل أن أجري معه تقريرًا صحافيًا، لكني في العادة أفعل مع هؤلاء الأطفال مثلما يفعل الجميع: التجاهل التام. خجلت من نفسي، ثم أكملت الحوار وسألته:

- **طيب بتاكل منين؟ قبل ما أشتري منك العلب كلها، كنت بتجيب أكل منين؟**
- **في ناس بتعمل معايا حاجات وحشة، بس بعدين بيدوني أكل.**
- **حاجات وحشة إزاي؟**

أشار إلى عضوه الذكري وقال:

- **بيمسكوني من هنا.**

ذُهلت. الطفل يتم التحرش به**!** أخيرًا وجدت الزاوية الجديدة التي سأتناول منها موضوع أطفال الشوارع. ثم سألته:

- **طب وإنت بتحس بإيه؟**
- **ببقى متكدر، بس برضى عشان ببقى جعان وعايز آكل.**

سرحت بخيالي قليلاً. علي اليوم ضحية، لكنه سيكبر غدًا ويصبح مثل المتحرشين به. سيتحول مع الوقت إلى مجرم ومتحرش. تنهدت بحزن، ثم طلبت منه:

- **علي، ينفع أصورك؟**

صمت قليلاً، ثم أجاب:

- **ماشي.**

قمت بتصويره، ثم ذهبت في اليوم التالي إلى الجريدة، وأنا مختالة بنفسي فقد أجريت تقريرًا عن أحد أطفال الشوارع الذي يتم التحرش به. نلت إعجاب رئيس التحرير. وفي الطريق، وأنا عائدة، استمعت إلى بعض أغنياتي المفضلة في سيارتي، وإذ بي أجد طفلًا قادمًا فجأة نحوي، دون أن أدري دهسته بسيارتي.

حين نزلت، وجدت أن هذا الطفل هو علي. آخر تعبير رأيته على وجهه هو ابتسامة. نعم، قد ابتسم علي أخيرًا، ربما لتحقيق أمنيته، حيث حصل على اعتراف الناس بوجوده، فقد تجمهر حول سيارتي العديد من الناس، ناظرين إلى علي المهشم الموجود على الأرض نازفًا. وأخيرًا نظر الناس له.

وقد أخرجني المحامي فيما بعد، نظرًا لأن الطفل أتى إليّ. وتذكرت ابتسامة علي الوحيدة وقتئذ، كأنما يصفح عني ما فعلته معه، وكأنه يريد أن يقول: أنا من فعلها، أنا الذي أردت أن يعترف الناس بوجودي.

الحكاية الرابعة عشر: السارقة

عند مراجعة الكاميرات، وجدت السيدة فاتن حفظي ما لم تتوقعه؛ إذ رأت منى تختلس من مال الخزينة. وما يحير أكثر أنها فعلت ذلك وهي تعلم أن المكتب مزوّد بكاميرات وأنها مراقَبة. استنتجت السيدة فاتن أن منى لم تخطط للسرقة عمدًا. وبعد مرور عشر سنوات من العمل مع منى صدقي، التي تعتبرها الموظفة المثالية، لم ترغب السيدة فاتن في اتخاذ موقف رسمي أو تحويل منى للتحقيق، فحاولت حل الموضوع بطريقة ودّية واسترجاع ما أُخذ من الخزينة قبل أن يدري أحد. ومن قسم شؤون العاملين، حصلت على عنوان منى وتوجّهت إلى منزلها.

****

قبل ثلاثة أيام،

تستيقظ منى في موعدها في السادسة صباحًا، تغسل وجهها وأسنانها، وتعد الفطور لها ولزوجها وابنتها البالغة من العمر خمس سنوات. تصلي وتشكر الرب لأنه منحها يومًا جديدًا تحيا فيه هي وأسرتها. قبل أن تخرج من المنزل، تسقي الأزهار في بيتها، وعند خروجها من باب العمارة، إذا رأت عمال النظافة، تحرص على المحافظة على نظافة الشارع كي لا تتعبهم، وتضع أي ورقة لا تريدها داخل حقيبتها حتى تجد سلة قمامة قريبة، وتربي ابنتها على ذلك.

إذا قابلت متسولًا في الطريق، تعطيه ما تستطيع، وتوزع الابتسامات على كل من تقابله. وفي أحد الأيام، وجدت قطة مريضة في الشارع، فأخذتها إلى ملجأ للقطط حتى تتعافى، وكذلك كانت تفعل مع أي حيوان مريض تصادفه، لا تتركه حتى تطمئن إلى أنه سيتعافى.

وحين رأت ابنتها تعبث بالماء، أخبرتها أنه يجب الحفاظ عليه لأن هناك من لا يجده، لذا علينا ترشيد استهلاك الماء والكهرباء. كما استبدلت الأكياس البلاستيكية الضارة بالبيئة بأكياس ورقية صديقة للبيئة. وحين طلبت منها ابنتها أن تشتري طعامًا جاهزًا من أحد المطاعم، رفضت منى ذلك، إذ كانت تحرص على تناول طعام صحي دائمًا هي وأسرتها.

بعد أن أوصلت ابنتها إلى المدرسة، تابعت طريقها إلى العمل، فهي تحرص على ألا تتأخر عن الوصول. وعندما وصلت إلى مقر عملها في الموعد المحدد، وزعت ابتسامتها على زملائها.

بعد قليل، جاءت نشوى صديقتها تطلب منها أن تأخذ دورها في الجمعية لأنها في حاجة شديدة للمال، فوافقت منى في الحال لمساعدتها. وكذلك طلبت منها صديقتها سعاد مبلغًا بسيطًا على سبيل السلفة، ووعدتها أن ترده لها، لكن منى وافقت فورًا وطلبت منها ألا تهتم بإعادة المبلغ، فما يهم الآن هو أن تتجاوز ضائقتها المادية.

وهكذا كانت منى محبوبة من الجميع، حتى جاءها اتصال من معمل التحاليل، فتغير حالها وغادرت المكتب في ذلك اليوم، وقد شعر الجميع أن هناك خطبًا ما بها.

****

عادت منى إلى منزلها بعد زيارتها لمعمل التحاليل، وفي طريق العودة قابلت محتاجين، لكنها ولأول مرة رفضت أن تعطي أحدًا منهم شيئًا. وحين ألح عليها أحد المتسولين، صرخت في وجهه:

ـ لقد كففت عن فعل الخير.

ثم جاءت إليها جارة اعتادت أن ترى السيدة منى تعتني بالحيوانات، وكانت تحمل معها قطة مريضة، لكن على غير العادة رفضت منى إيواء هذه القطة المسكينة، وصرخت في وجه جارتها:

ـ ما شأني بها؟ أبعديها عني.

وحين ذهبت لقضاء بعض حاجات المنزل، طلبت أن تُعبأ المشتريات في أكياس بلاستيكية مثل باقي الناس، غير مهتمة بشؤون البيئة. ثم حين وصلت منزلها، قامت بتشغيل التلفاز بأعلى صوت، وبعدها قررت أن تطلب طعامًا من الخارج، بالرغم من كونها كانت دائمًا ترفض دخول هذه الأطعمة إلى منزلها.

أشعلت أضواء المنزل كلها وفتحت جميع الصنابير، رغبةً في إهدار الموارد البيئية من ماء وكهرباء. حتى أنها فكرت أيضًا في التدخين، ثم ذهب تفكيرها بعد ذلك إلى تجربة شرب بعض الخمور.

جلست والأضواء الكثيرة تملأ أرجاء المنزل، والضوضاء القادمة من التلفاز تختلط بدموعها المنهمرة على وجنتيها، وفي يدها اليمنى قطعة بيتزا من الخارج، وفي يدها اليسرى سيجارة تجربها لأول مرة في حياتها، مع الكثير من الأنين الصادر من صدرها وبكائها المتقطع.

****

حين وصلت السيدة فاتن نبيل إلى منزل منى، تفاجأت بأن لا أحد هناك. وحين سألت الجيران، دلوها على المستشفى التي ذهبت إليها منى لترافق ابنتها التي اكتشفت أنها مريضة بسرطان الدم. لم تستوعب السيدة فاتن المفاجأة؛ إذًا منى كانت بحاجة إلى مبلغ مالي لمساعدة ابنتها. قررت وقتها أن تذهب إلى منى في المستشفى وتحاول أن تُسوي الموضوع وديًا معها.

توصلت السيدة فاتن أخيرًا إلى الغرفة التي تقيم فيها منى مع ابنتها. نظرت إليها، فلم تجد منى التي تعرفها. أين ابتسامتها التي كانت توزعها على الجميع؟ وجه شاحب، وعينان جامدتان ليستا حزينتين أو مكسورتين كما توقعت، بل بلا أي تعبير.

– منى حبيبتي، حزنت كثيرًا لما جرى لكِ ولابنتكِ

قالت السيدة فاتن برقة. لكن منى أجابت بلا مبالاة:

– لا داعي لهذه المقدمة... أنتِ هنا من أجل الأموال الناقصة من الخزينة... نعم، أنا من أخذها.

تفاجأت السيدة فاتن من حديثها، واقتربت منها قائلة برقة:

– إن كنتِ بحاجة إلى المال، لماذا لم تخبريني من قبل؟ كنتُ سأتصرف وأوفر لكِ المبلغ.

نظرت إليها منى بعينين جامدتين وقالت:

– لكنني لستُ بحاجة إلى المال.

– إذًا لماذا أخذتِ المبلغ من الخزينة؟ بهذا الفعل سيحاسبك القانون على تبديد عهدتك.

– ولماذا يحاسبني أنا؟ ألم أكن الموظفة المثالية؟ ألم تقولي هذا لي مرارًا وتكرارًا؟

– نعم، بالفعل كنتِ كذلك... لكن لماذا يا منى؟

– أخبريني أنتِ لماذا... لماذا إنسانة جيدة مثلي تمرض ابنتها وتنتظر موتها؟ لقد كنتُ جيدة طيلة الوقت... أعطي الفقراء والمساكين، أساعد الحيوانات الجريحة، لا أرد محتاجًا، أعامل زملائي بلطف، لا أحرج أحدًا، لا أتأخر عن موعد عملي، لا

أفوت صلاة، ملتزمة بكل تعاليم ديني ومجتمعي، أحافظ على الكهرباء والبيئة حتى أساعد في إنقاذ الكوكب... لكن أي كوكب هذا الذي لن تعيش فيه ابنتي؟ ابنتي التي كنتُ أفعل كل ما في وسعي كي تكون بصحة جيدة... أحرمها من الأكل من الخارج ومن كل ملذات الحياة لأنها غير صحية، فتمرض، بينما غيرها لا! جاوبيني... لماذا إذًا؟

هنا أدركت فاتن أن منى سرقت المال ليس لأنها تحتاجه، بل على سبيل الانتقام... الانتقام من قيمها التي لم تحمِها من الوقوع في ألم كبير، كألم مرض ابنتها الوحيدة.

– اسمعيني يا منى... نحن حين نفعل الخير، نفعله لأننا مقتنعون بأنه الصواب، لا لأن فعل الخير سيمنع عنا الشر في هذه الحياة. أنتِ بالفعل موظفة مثالية، وأيضًا إنسانة مثالية، لكن هناك عيب واحد فيكِ... أو لنقل إنه معتقد طفولي بداخلك: أننا حين نفعل الخير سنكون دائمًا بخير، وأننا حين نكون أشخاصًا جيدين ستحدث لنا الأمور الجيدة فقط. أنتِ لديكِ قيم عليا جميلة، لكنكِ تعتقدين أن هذه القيم المثالية هي السياج الذي سيمنع عنكِ الأذى. الحقيقة أن وجودنا في هذه الحياة يعني أننا، ضمنيًا، سنتعرض للأذى سواء كنا أشرارًا أم أبرارًا. أما مرض ابنتكِ، بالرغم من حرصك على صحتها، فنحن نحافظ على صحتنا لأنها أمانة من الله، لا لنؤخر الموت أو نهرب منه. فالله من حقه أن يسترد أمانته في أي وقت شاء، وبالطريقة التي يشاء.

بكت منى على كتف السيدة فاتن. وبعد شهر، توفيت ابنة منى، وتم تحويل منى للتحقيق، والحكم عليها بالسجن. وظلت السيدة فاتن تزورها وتطمئن عليها

الحكاية الخامسة عشر: الجانب الآخر

استيقظت صباح يوم جديد، وكالعادة كانت أميرة بجانبي، أتت وهي تحاول إيقاظي:

_ يا دكتور... الجامعة يا دكتور.

ثم وضعت بجانبي كوب القهوة الذي أعدته لي كما أحب تمامًا، وذهبت كي تُعد وجبة الفطور، التي كعادتي سأتركها دون أن أتذوق منها شيئًا. فتقطب أميرة حاجبيها معترضة، مذكّرة إياي بأهمية وجبة الفطور، فأذكرها أنا بدوري بأهمية الالتزام بالمواعيد. ثم أتركها وأذهب إلى الجامعة، وهذا ما حدث معي اليوم أيضًا.

في طريقي إلى الجامعة، حيث أعمل دكتورًا في كلية الهندسة، كنت أفكر أن هذه لم تكن رغبتي من البداية. كنت أرغب في فتح مكتب خاص بي، فأنا أكره روتين عمل الجامعة والبروتوكولات. لكن حين تم تعييني كمعيد في الجامعة، شعرت أمي أن هذه الوظيفة مستقبلها آمن، كما أن لها وجاهة اجتماعية، وهذا أكثر ما كان يهمها. فمنذ أن توفي والدي وتولت أمي تربيتي، كانت تحرص دائمًا على أن أكون الأفضل، وكوني أستاذًا في الجامعة سيثبت هذا لأعمامي أن والدتي أحسنت تربيتي.

وهكذا، منذ كنت طفلًا، لم أفعل شيئًا إلا لأثبت أن أمي أحسنت تربيتي. لقد كنت الطفل المهذب، المطيع، والمجتهد. أتذكر حين كنت في الرابعة عشرة من عمري، كأي مراهق حاولت أن أجرب السجائر، وكانت ردة فعل أمي قوية جدًا. ظلت تبكي حين رأت السيجارة في يدي، شعرت أنني طعنت أمي في قلبها، وهذا ما قالته لي. حينها تركت السجائر دون رجعة. ربما لو أنها عاقبتني بقسوة أو حتى ضربتني، لكان أهون من شعوري بالذنب الذي اجتاحني تجاهها وقتها.

بعدها حاولت أمي معرفة من هم أصدقائي وانتقائهم بعناية، حتى لا يجرني أحد إلى طريق السوء. كذلك منعتني من التأخر في الخروج إلى وقت كان فيه معظم أصدقائي خارج منازلهم. أطلقوا عليّ حينها لقب "ساندريلا".

لكن، هل هذا كله يجعلني أعتبر والدتي قاسية؟ أكون ظالمًا إن قلت ذلك، فقد كانت بالغة الرقة. لكن... هل يمكن اعتبار الرقة الشديدة نوعًا من القسوة؟

أخرجني من زحمة أفكاري صوتُ صراخ امرأة على الطريق، ورأيت رجلًا يضربها. تذكرت إحدى المحاضرات التي ألقيتها عن العنف ضد المرأة، لكن للحظة شعرت أن هذا الشخص أكثر رجولة مني! صوّر خيالي أنني مكان هذا الرجل، أضرب أميرة زوجتي بمثل قوته، ثم وجدت نفسي مستمتعًا بهذا الخيال!

كيف ذلك؟ كيف أستمتع بهذا الخيال وأنا أكثر من يقاوم العنف؟ فجأة توقف صوت الصراخ، وهربت المرأة، ثم سمعت الرجل يقول ألفاظًا نابية أستحي أن أتلفظ بها، لكن وجدت خيالي قد كوّن صورة سريعة عني وأنا مكان هذا الرجل.

لكن... هذه ليست أخلاقي، وليست قناعاتي. فالرجولة ليست السبّ والضرب.

******

في الأسبوع التالي، تحدثتُ أنا ومعالجي النفسي عن هذه الخيالات الغريبة. طلب مني أن أفكر: لماذا تراودني هذه الخيالات بالتحديد؟ وما علاقتها بمفهومي عن الرجولة؟ وأخبرني سريعًا عن "الظل"، وهو ما نكبته داخلنا ولا نريد أن نخرجه، وأن كُلًّا منا لديه الخير والشر داخله، ونحن من نختار ماذا يظهر على السطح، أما الباقي فيذهب إلى الظل.

سألت نفسي: تُرى، ماذا يوجد في ظلي؟ هل هناك شخص آخر ظالم، يحب العنف، بذيء اللسان؟ ثم فكرت: أنا دائمًا إنسان مسالم، أدعو إلى نبذ العنف... لكن هل أكون فعلًا مسالمًا؟ أم أنني لستُ سوى جبانٍ أَدَّعي حب السلام؟ تُرى، هل هي أخلاقي ما يمنعني عن ممارسة العنف والإيذاء، أم هو ضعفي وخوفي الذي أسميته "أخلاق"؟ ما هو سبب إعجابي بهذه الشخصيات التي أقاومها في وعيي، وأحذر المجتمع منها؟

قطع تفكيري صوت هاتفي يرن — إنها والدتي. أجبتها بضيق، وكالعادة بدأت توبخني على عدم الاتصال بها، وكذلك على تأخيري في العودة إلى المنزل.

المواعيد... كم أكره المواعيد! كم أكره القوانين التي وضعتها أمي منذ كنت طفلًا! كم تخيلت أنني أصرخ في وجهها وأقول بصوتٍ عالٍ:

_ كفاية بقى تحكمات... أنا مش عيل!

لكنني دائمًا ما كانت تأخذني الشفقة بها، فقد كبرت أمي ولم تعد تحتمل.

حين أغلقت الهاتف مع والدتي، وجدت رسالة من أميرة زوجتي... فأميرة نسخة مصغرة من والدتي. لذا، وجدت أن ما لا أستطيع فعله مع أمي... يمكن أن أفعله مع أميرة.

****

رجعتُ هذه المرة متأخرًا. لم أكن أعرف إلى أين أذهب؛ كانت هذه هي حريتي، لكنني لم أكن أعرف كيف أستخدمها. لذا دخلتُ أماكن متعددة، أجلس في كل مكان برهة، ثم أغادره إلى غيره. كنتُ كأنني طفل استطاع لأول مرة أن يخطو... كم كنت سعيدًا، لكن متوجسًا، فليست هذه عادتي.

حين رجعتُ إلى المنزل، وجدتُ أميرة ـــ كما توقعت ـــ نظرات صامتة معاتبة. كان هذا أول عقاب منها: سحبت ابتساماتها مني. لم أهتم بها، تركتها متجهًا إلى غرفة النوم حيث كنت أرغب في النوم أكثر من أي شيء آخر.

وحين رأت أنني لن أقدم اعتذارات، جاءت وفتحت معي الحديث:

_ مش عادتك تسهر برة.

لم أعرف كيف أجيب؛ فلم يعلمني أحد بماذا نجيب زوجاتنا حين نسهر. لم تخرج مني سوى كلمة:

_ آسف... مش هتأخر تاني.

لم أعرف كيف قلتُ هذا وأنا أنوي استعادة حريتي التي أُخذت مني... لكن ليريحها هذا الرد قليلًا، فتنام... وأنام أنا.

****

في اليوم التالي استيقظتُ مبكرًا قبل أن تصحو أميرة، وحاولتُ ـــ لأول مرة ـــ أن أعد الطعام. فلستُ طفلًا صغيرًا. بعد عدة دقائق جاءت أميرة وقالت بنبرة مستفهمة:

_ بتعمل إيه هنا؟

_ ولا حاجة، قلت مرة أعمل الفطار عشان أريحك يوم.

نظرت إليّ وحاولت الابتسام، لكنها كانت ابتسامة صفراء، ثم اقتربت وحاولت أخذ الأطباق من يدي:

_ طب سيب يا حبيبي، أنا هكمل.

نظرتُ إليها بحدة وقلت:

_ لا... أنا اللي هكملهم.

ربما خافت أميرة من حدّتي، لكنها انسحبت وأخلت لي المطبخ. نظرتُ إلى الطعام وأنا أعده وقلت في نفسي:

_ مش هخلي أميرة تشمت فيَّ وتبوظه.

تأخرت قليلًا، ثم قدّمت الطعام لأميرة. نظرت إليّ وقالت:

_ بس مش غريب... تنام بالليل متأخر وتصحى بدري يوم أجازتك؟

بدأتُ آكل. لم يكن الطعام سيئًا كما توقعت، فقلت:

_ لا... ما أنا ما نمتش، لسه. بعد ما آكل هدخل أنام عشان ميعاد النهاردة مع صحاب الجامعة.

نظرت إليّ أميرة بدهشة:

_ إنت هتخرج كمان النهاردة؟... هتتأخر؟

_ يمكن... مش عارف.

قالت بأسى:

_ براحتك.

كنتُ أعلم معنى هذه الكلمة جيدًا حين تصدر من أميرة؛ راحتي لن أجدها إلا حين أفعل ما يريح أميرة. تبادلنا بعض الابتسامات الصفراء، ثم ذهبتُ إلى الفراش ونمت. وفي المساء خرجتُ برفقة أصدقائي القدامى، لكنني حين كنت معهم شعرتُ أني غريب عنهم. نعم، لقد أخذوني إلى حيث أردتُ أن أذهب... ولكن ماذا بعد؟ كأني لا أتحدث لغتهم. شعرتُ بوحدة شديدة في هذا العالم، لكني قررتُ أن أكمل فيه.

بدأت أرى أن بعضهم يدخن... التدخين: حلم الطفولة، ورمز الحرية، وأيضًا رمز الرجولة. كنتُ قد قلتُ في إحدى محاضراتي السابقة: لا أدري لماذا يربط مجتمعنا بين الرجولة وفعل مؤذٍ كالتدخين. لكن ما رغبتُ فيه في تلك اللحظة هو أن أدخن... أن أشعر أنني قادر على فعل أي شيء، حتى وإن كان مؤذيًا. لذا... دخنت لأول مرة في حياتي.

****

بعد مرور شهر، أصبح السهر عادتي، وكذلك بدأتُ أدخن. كانت أميرة تستشيط غيظًا مني، وبدأت الحرب الباردة بيننا؛ سحبت ابتسامتها مني وكأنها تعاملني كطفل: حين يصبح مطيعًا تطبع أمه قبلة على وجهه وتدعوه بـ"الشاطر"، وحين يخطئ تنظر إليه في تأنيب. هكذا كانت تفعل معي أميرة... ومن قبلها ماجدة، والدتي.

وأخيرًا نفد صبر أميرة، حين فعلتُ ما لم تستطع أن تتسامح فيه: شربتُ الخمر لأول مرة في حياتي. عندها قررت أن تستعين بصاحبة الخبرة في هذا الشأن... والدتي العزيزة، السيدة ماجدة، المربية الفاضلة. أحضرتها أميرة لترى بنفسها إلى أي حال وصل ابنها المصون.

دخلتُ المنزل، وإذا بأميرة جالسة على نفس الأريكة مع أمي. في تلك اللحظة أدركتُ مدى التشابه بين والدتي وزوجتي. حاولتُ أن أرحب بقدوم أمي بابتسامات مصطنعة وعبارات محفوظة، لكنها نظرت إليّ بحدة وقالت:

_ ما صدقتش أميرة لما اشتكت لي منك... لغاية ما جيت وشفت بعيني. إيه اللي إنت عامله في نفسك ده؟ الأستاذ الجامعي المحترم بيرجع بيته متأخر وهو شارب!... أنا ربيتك على كده؟

_ ما هي المشكلة كلها في "ربيتك" دي! إنتِ دايمًا بتتعاملِي معايا على إني لعبة في إيدك... على إني الصورة اللي هتقدميها للمجتمع عشان يصفق لك: "شوفوا الست الأرملة عرفت تربي راجل محترم إزاي".

_ أنا مش فاهمة... دلوقتي بقيت غلطانة عشان كان نفسي تطلع راجل محترم؟... أما إنت صحيح عيارك فلت.

التفتُّ إلى أميرة، الواقفة تستمع إلينا، وقلت:

_ حتى مراتي اللي إنتِ اخترتيها لي نسخة منك... بتعاملني كطفل، ولما أغلط رايحة تشتكيني لولي أمره!

كسرت أميرة صمتها وقالت:

_ كفاية كده يا أمير... احترم والدتك وراعي إنها ست كبيرة.

حين نطقت أميرة، لم يأتِ في ذهني سوى صورة واحدة: أن أضربها. اجتاحتني رغبة شديدة في فعل ذلك. في تلك اللحظة، بدأت أمي توبخني بشدة على أفعالي، وأميرة تحاول تهدئتها. وحين بدا أن المشهد أصبح كارثيًا... خرجتُ من المنزل،

ربما كان الهروب هو الفعل الوحيد الذي أجيده. ولأول مرة... أبيت خارج المنزل يومها.

****

في اليوم التالي، حدثتني أميرة على الهاتف. لم أرغب في الرد عليها، لكن مع كثرة إلحاحها أجبتها. أخبرتني أن والدتي ذهبت إلى المستشفى، وأنها هناك معها. تركت ما في يدي وذهبت فورًا.

في الطريق، أرسل لي صديق رابطًا لخبر يحتوي على صور مسرَّبة للسيد أمير رؤوف المحترم وهو يشرب الخمر في أحد الملاهي الليلية. لم أعلم مَن الذي سرب هذه الصور، ويبدو أنني نسيت أنني شخصية معروفة. فكرت في عملي في الجامعة: هل ستؤثر هذه الصور عليه؟ كنت أرغب فقط في أن أستعيد بعضًا من حريتي المسلوبة... فكيف وصل الحال بي إلى هنا؟

عندما وصلت إلى المستشفى، رأيت أميرة جالسة أمام غرفة أمي. كانت فرصة لأتحدث معها على انفراد.

_ أميرة... ماما عاملة إيه؟

نظرت إليّ بغضب مكبوت أعرفه جيدًا، وقالت:

_ ما تخافش... طنط هاتبقى كويسة.

ثم صمتت، وصمتُّ بدوري، على الرغم من رغبتي في قول الكثير. قطع الصمت صوت أميرة:

_ على فكرة... إنت جبان. إزاي تسيبني أنا ومامتك وتمشي؟

وصفتني بالجبان... محقة. نعم، أنا جبان، ولهذا كانت تعاودني خيالات الضرب والعنف. تخيلت في تلك اللحظة أنني أضربها أمام الجميع، لكنني بدلاً من ذلك قلت:

_ أميرة... أنا شايف إننا لازم نسيب بعض. كل واحد فينا بَعُد عن التاني.

رأيت المفاجأة والصدمة في عينيها، ثم قالت:

_ ليه؟... ده أنا اللي المفروض أطلب منك الطلب ده!... عايز تسيبني عشان بحبك وخايفة عليك؟

ارتفع صوتي حينها:

_ أنا بكره الكلمة دي... بكرهها! خايفة عليا من إيه؟... من الحياة؟ من الدنيا والتجارب؟ من الغلط؟ سيبيني أغلط... يمكن أتعلم من غلطي!

رأيت دمعة تلمع في عينيها.

_ لو ما كنتش بحبك... ما كنتش هخاف عليك.

_ وأنا مش عايز الحب ده... إنتِ بتخافي حتى لما أختار لبسي وهدومي بنفسي.

ارتفعت نبرة صوت أميرة:

_ أنا كنت بعمل كده عشان أريحك.

_ وأنا كنت حاسس إنك أمي... وإني طفل، مش حبيبتي ومراتي.

تركت أميرة تستوعب الصدمة، ثم دخلت إلى غرفة أمي. كانت نائمة. استغليت الفرصة لأعاتبها دون أن تسمعني، فأنا لا أريد أن أجرحها:

_ أنا النهاردة ما بقاش ابنك اللي عملتيه... اللي ما بيغلطش. ابنك اللي هتكيدي بيه أعمامي، واللي الدنيا هتديكي تكريم على تربيتك ليه. كنتِ عايزاني الابن المثالي عشان تبقي أنتِ الأم المثالية... لكن أنا كنت عايز أبقى عادي... إنسان عادي بيغلط. أنا ماليش دعوة بحربك مع الناس، ولا إنك عايزة تثبتي حاجة لحد. أنا كان نفسي تشوفيني إني ابنك وتحبيني وأنا مش أعظم ابن... زي ما أنا بحبك وإنتِ مش أعظم أم

بعد شهر، توفيت والدتي. لكن الحمد لله أنني صالحتها، حتى وإن لم تسمع ما قلته لها في المستشفى، فقد كنت أجبن من أن أقول شيئًا. عدتُ إلى أميرة شكليًا فقط، لترضى عني والدتي، لكنني كنت مزمعًا على الطلاق، فلا أريد "أمًّا" جديدة في حياتي. توقفت عن الشرب والسهر، فهذه ليست أخلاقي. كنت فقط أختبر الجانب الآخر من الحياة... أختبر حريتي، وقد عادت لي من جديد، وهذا كل ما أريد.

اقترب عيد الحب، ويجب أن أفكر فيما سأكتبه في مقالة عيد الحب. ثم تأملت حياتي قليلاً: من أنا لأكتب عن الحب؟ امرأة جوفاء تجاوزت الثلاثين من عمرها، وتعيش بمفردها. لكن حياتي ليست مأسوية؛ فلدي عملي، وأكسب مالاً جيداً، وأخرج وأسافر وقتما أشاء. ومع ذلك، أنا وحيدة. هناك قراء ينتظرون تلك المرأة الوحيدة كي تحدّثهم عن الحب.

أخذت نفساً عميقاً، وسألت نفسي: هل لو كنتُ قد تزوجت أحداً ممن قابلتهم، لكنت الآن أسعد؟ وجدت أن الإجابة بالتأكيد: لا. يبدو أن العيب فيّ أنا، إذ لا أرضى بأي وضع. خطرت في بالي فكرة، فقررت فتح فيسبوك والبحث عن أخبار من مروا في حياتي، لكن هذه المرة من زاوية مختلفة: سأعرف كيف تشعر كل امرأة تزوجت رجلاً كان من الممكن أن أتزوجه.

****

كوّنت مجموعة خاصة من النساء، من بينهن زوجات الرجال الذين عرفتهم، ثم طرحت سؤالاً عن مدى سعادة كل امرأة في زواجها أو مع حبيبها. في البداية، تلقيت إجابات مثالية إلى حد الزيف، تتحدث عن سعادة حياتهن الزوجية وعلاقاتهن، وعلى الجانب الآخر، تلقيت إجابات سوداوية جداً، لا ترى أي خير في الزواج ولا معنى للحب.

لكن هذه النوعية من الإجابات لم تكن مبتغاي، فأنا أرغب في معرفة كلام حقيقي. كان عليّ أن أستفز النساء كي يتحدثن أكثر، حتى وجدت السؤال الذي يمكن أن يستفزهن:

"أيتها المرأة، إذا خانك زوجك أو خطيبك أو حبيبك، هل تفضلين أن تعرفي، أم تحتفظي بصورة وهمية عن حبه المثالي لك؟"

تركت هذا السؤال يشعل المجموعة، ورأيت مشاجرات كثيرة بين النساء في التعليقات. دُهشت من الإجابات؛ فقد بدا بوضوح أن النساء المتزوجات يفضلن ألّا يعرفن حتى لا تهدم منازلهن، بينما الفتيات غير المتزوجات لا يرغبن في أن يصبحن مغفلات. كان هذا بالنسبة لي مؤشراً.

ثم وضعت سؤالي الثاني: "في رأيكن، لماذا يجب أن يتزوج الإنسان؟"

مرة أخرى، انقسمت الإجابات بين النساء، وبدا الفرق واضحاً تبعاً للحالة الاجتماعية للمرأة. قالت النساء المتزوجات، ومن بينهن زوجات رجال أعرفهم:

"من أجل الأنس، من أجل إنجاب الأطفال، من أجل إقامة عائلة"، بينما أجابت نسبة قليلة "من أجل الحب". أما الفتيات، فكانت لديهن إجابات أخرى تتمحور حول الحب والشراكة وتخفيف أعباء الحياة، ولأن هذه سنة الحياة. وكان هذا أيضاً مؤشراً.

ثم وضعت سؤالي الثالث: "كم تشعرن بالوحدة في حياتكن؟"

ذهلت من الإجابات، فقد تساوت نسبة النساء اللاتي يشعرن بالوحدة تقريباً بين المتزوجات وغير المتزوجات. وكانت هذه المرة الأولى التي تتساوى فيها نسبة الإجابة على سؤال ما. وهذا أيضاً مؤشر.

حاولت استجماع أفكاري لكتابة المقال، وتقول هذه المؤشرات إن غالبية أسباب الزواج ترجع إلى الخوف من الوحدة أكثر من حب الارتباط. كما يتبين أيضاً أن الجميع يعاني من الوحدة بدرجة ما، ويبدو أن هذه الدرجة كبيرة جداً. إذن، لماذا نتزوج ونحب؟

لهذا سأكتب مقالي بعنوان "16 سؤالاً في الحب":

1. **هل عدم الزواج يُسبب الوحدة؟**

نعم، فقد خلقنا الله ونحن بحاجة لعلاقة عميقة مع طرف من الجنس الآخر.

2. **إذن، هل الزواج يقضي على الوحدة؟**

الإجابة بالتأكيد لا. نحن كائنات اجتماعية، مثلما قالوا لنا، لكن لم يخبرنا أحد أن هناك نسبة من الوحدة ستظل ترافقنا في أي وضع، سواء أصبح لدينا شريك أم لا.

3. **ما هو الحب؟**

الحب هو الاستعداد للتضحية.

4. **كيف نقلل من الوحدة؟**

الحب طبعاً، والصداقة، والعمل، كلها أشياء تقلل من الوحدة لكنها لا تقضي عليها.

5. **ما هو الحب؟**

الحب حين تتعرى داخلياً كما تتعرى جسدياً في العلاقة الحميمة بالزواج، فليس تعري الجسد سوى وسيلة لتعري الروح.

6. **كيف نقضي على الوحدة؟**

السؤال الأصح هو: لماذا نعتبر الوحدة عدواً ينبغي القضاء عليه؟

7. ما هو الحب؟

حين تصبح الحقيقة لأول مرة أجمل وألذ من الخيال، يكون هذا هو الحب.

8. إن لم تكن الوحدة عدواً، فهل هي صديق؟

نعم، إذا تحولت إلى خلوة يختلي فيها الإنسان بنفسه، يخرج منها الإبداع. ففي التربية مثلاً، ينصح الخبراء الأمهات بحجب مصادر التسلية عن أولادهن لفترة، لأن أوقات الملل تدفع الأطفال للابتكار.

9. ما هو الحب؟

حين لا أخاف منك، فأنا أحبك.

10. أيهما أفضل: جنة الوحدة أم نار الحب؟

أكثرنا يفضل نار الحب على جنة الوحدة، ويظهر ذلك في اختيار كثيرين الدخول في علاقة سيئة على البقاء وحيدين. لكن لن أردد شعارات رنانة، فلكل إنسان الحق في أن يختار الطريقة التي يُعذَّب بها.

11. ما هو الحب؟

حين تنتهي عدواتي مع الوقت وأنا مع مَن أحب، فلا أنا أقطعه ولا هو يقطعني.

12. لماذا يجب أن نحب؟

لأنه ليس بإرادتنا. هل تتساءل لماذا يجب أن نتنفس أو لماذا ننام؟ كذلك الحب، ظاهرة إنسانية طبيعية.

13. ما هو الحب؟

حين أسلمك روحي وأشعر أنها بأمان معك.

14. هل الأمومة أهم دور للمرأة؟ وماذا عن المرأة التي ليست أماً؟

نعم، الأمومة أهم دور للمرأة، ولكن لا توجد امرأة ليست أماً حتى التي لم تُنجب. نحن النساء نستطيع إعادة خلق الحياة داخل بطوننا أو داخل عقولنا: نضع طفلاً، أو نضع عملاً مبدعاً جديداً.

15. ما هو الحب؟

حين يكون هناك سبب أستيقظ من أجله في الصباح، يكون هذا هو الحب.

16. كيف نصبح سعداء في الحياة؟

السعادة لا تأتي للجبناء، السعادة تُخلق ولا تُمنح.

في عيد الحب، عزيزتي العازبة أو المرتبطة وتشعرين أنك مع الشخص الخطأ أو مع الشخص الصحيح، لا يهم، فالحب يُخلق أيضاً. يمكننا أن نجعل كل فعل في حياتنا فعلاً من أفعال الحب.

استيقاظي في الصباح هو فعل حب حين أضع في نيتي أن وجودي في الحياة لمساعدة غيري. هناك مخلوق في هذه الدنيا يحتاج ابتسامتي، وقتي، تركيزي. لقد خلقنا كائنات نحب: نحب الله، والفراشات، والزهور، وأيضاً نحب شخصاً ما حتى إن لم يظهر بعد.

الآن أفكر: هل لو عاد بي الزمن كنت سأغير حياتي؟ الحقيقة: لا. وكذلك كانت إجابة معظم النساء في مجموعتي الخاصة.

_ هبة... ما تيجي أعزمك على حاجة في كافيه؟

نظرتُ إلى هشام، زميلي في العمل وصديقي، ثم قلت له:

_ ماقدرش.

_ ليه بقى؟

_ عشان أنت مش جاهز للجواز، وأنا عايزة أتجوز. وخروجنا سوا هيأثر عليا. لازم ماخرجش مع حد عشان أبعت رسالة للاوعي بتاع أي شاب إني مش فاضية ولا متاحة، ولما أتخطب هابقى بتاعته لوحده.

ابتسم هشام لي بدهشة:

_ إنتِ مجنونة... أقسم بالله.

ضحك ثم انصرف. آه يا هشام... إذا كنتَ تسعد بصحبتي، لماذا لا تتزوجني؟ الفارق العمري بيننا مناسب، ونحن من نفس الطبقة الاجتماعية، وتعرف طريقة تفكيري. لماذا يا هشام؟ لماذا يا زفت؟!

جاء موعد الانصراف، خرجتُ مسرعة وتوجهت إلى عيادة طبيبتي الخاصة. كنتُ قلقة منذ آخر كشف، حين علمتُ أن عندي ورمًا خبيثًا في الرحم. في هذه الزيارة، أخبرتني طبيبتي أنه يمكننا الانتظار من عام إلى ثلاثة أعوام كحد أقصى، ثم يجب أن نستأصل الرحم. استمعتُ إلى كلماتها في أسى، وقلبي ممزق. يجب أن أتزوج في ظرف عام على الأكثر، وفي العام التالي أنجب، وفي العام الثالث أستأصل رحمي.

****

ليلتي الأولى في الفراش بعد أن علمتُ أنه ليس أمامي أكثر من ثلاث سنوات، وإلا لن أصبح أمًّا، كانت تشبه الليلة الأولى لكِ في القبر. شعرتُ أن غرفتي تحوّلت إلى قبري.

نظرتُ إلى نفسي في المرآة... مَن أنا؟

شعرتُ أنه إذا انتُزع رحمي مني، سأكون كشجرة ذابلة جفّت أوراقها وذهبت عنها الحياة.

حينها اتخذت قراري... يجب أن أتزوج هذا العام، بأي شكل.

****

في اليوم التالي، ذهبتُ إلى صديقتي سلمى، وهي متزوجة، وطلبتُ منها طلبًا:

– سلمى... مش أنا صاحبتك وإنتِ عايزالي الخير؟

– طبعًا.

– أنا عايزة أتجوز... شوفيلي عريس.

صمتت سلمى ثوانٍ ثم قالت باستغراب:

– عريس؟

– آه عريس! اشمعنا الرجالة من حقهم يقولوا لحد "شوفلنا عروسة"... أنا برضه عايزة أتجوز.

– حاضر يا هبة... لو في حد بيدور على عروسة ومناسب ليكي هقولك.

– جوزك مثلًا.

بُهتت سلمى، فأكملت:

– لا قصدي... جوزك أكيد له صحاب ومعارف عايزين يتجوزوا.

– حاضر يا هبة... صدقيني هشوفلك.

****

في المساء، كنت وحيدة... وحيدة جدًا.

حين يأتي الليل، تتضاعف وحدتي، فأفتح هاتفي كعادتي.

ثم خطرت لي فكرة: ألم نسمع عن زيجات كثيرة تمت عبر الفيسبوك؟

لماذا لا يحدث هذا معي؟ كل هؤلاء الأصدقاء... لماذا لا توجد علاقة بيني وبين أيٍّ منهم؟

فتحت قائمة طلبات الصداقة، وجدت طلبات من رجال، فبدأت أفتح صفحاتهم لأرى الحالة الاجتماعية لكل واحد منهم، لكني لم أجد شخصًا مناسبًا. وحتى لو وجدت، كم ستأخذ فترة التلميحات تلك، ثم التعارف، حتى نصل إلى لقاء حقيقي؟

ثم جاءتني فكرة أجنّ منها: لماذا لا أستخدم تطبيقات المواعدة مباشرةً؟

لكن... هل هذه التطبيقات آمنة؟ ربما يحتال عليّ أحدهم، أو ربما هي فقط لغير الجادين. كيف لي أن أعرف؟

في النهاية، قررت أن أُنشئ حسابًا دون أن أضع بياناتي الحقيقية... وأتركه لحين..

******

بعد مرور أسبوع

ذهبتُ إلى مدينة الملاهي. كنت أحب أن أرى الأطفال وهم يلهون بصحبة أمهاتهم. هناك، رأيت جارتي مع ابنتها ذات الثلاث سنوات، وطفلها الرضيع.

ألحّت الطفلة أن تصعد إلى أحد الألعاب، لكن الأم كانت منشغلة بطفلها، فطلبت مني أن أصطحبها بدلاً عنها.

أخذتُ الطفلة "لارا"، وركبنا كل ما اشتهته من ألعاب. كانت سعيدة معي بشكل واضح. وفي نهاية اليوم، تعلّقت بي ولم ترغب في العودة مع أمها.

أقنعتها، بأسف، أن تذهب إلى والدتها، ثم قبّلتها. لكن الطفلة جذبتني حتى أنزل إلى مستوى وجهها، ثم وضعت قبلة على خدي وودعتني.

في طريقي إلى المنزل، تخيلت أنني أخذتها معي، وأعددت لها طعامها المفضل. ثم قررت أنه حين أنجب طفلة، سأسمّيها "لارا" تيمّنًا بها.

عُدت إلى بيتي، وبجوار المنزل محلّ يصنع أعمالًا يدوية. طلبت من العامل أن يصنع لي ميدالية مكتوبًا عليها: "أم لارا"... ابنتي القادمة، استبشارًا بالخير.

****

في اليوم التالي، جاءتني مكالمة من صديقتي سلمى تخبرني أن لديها مفاجأة:

لقد وجدت لي عريسًا... زميل زوجها في العمل.

كان من المقرر أن أراه غدًا في النادي، في "صدفة مرتَّبة" دبرتها هي وزوجها. وإذا أعجبنا ببعض، يمكن أن يأتي إلى منزلي لزيارة والدتي.

استعددت للموعد وتجملت له.

حين وصلت، استقبلتني سلمى وزوجها. تحدثنا قليلًا، ثم ظهر "العريس" ـــ مدحت.

مظهره كان جيدًا إلى حد كبير، لكن لم أفهم لماذا جاء مرتديًا بدلة كاملة. جسده ممشوق، ويبدو أنه يواظب على الرياضة. كان يضع نظارات طبية، وله لحية زادته وسامة.

بعد بضع دقائق، تركتني سلمى وزوجها معه بمفردنا.

في البداية، لم نجد ما نقوله. تعارفنا بشكل تقليدي، وتحدثنا عن الطقس لدقائق، ثم قال لي:

_ على فكرة أنا غيور جداً.. مش عايز دي حاجة تضايقك.. أصلي لو ماكنتش بحبك مش هغير عليكي.

أرعبتني تلك البداية... كل فتاة شرقية تحب أن يكون رجلها غيورًا، لكني دائمًا ما كنت أتحسس مسدسي عند سماع هذه الكلمات. ثم أجبت:

_ الغيرة مش وحشة طبعًا... لكن لما بتزيد بتخنق.

_ لا إن شاء الله مش هتتخنقي.

أتبع كلامه بابتسامة جميلة طمأنتني قليلًا، ثم قال:

_ بصي يا ستي... بالنسبة للخروجات، هنحاول نقلل على قد ما نقدر. مش هحبسك طبعًا... بس كفاية قوي مرة أو اتنين في الأسبوع.

صمتُّ قليلًا... تُرى ماذا سيقول هذا البغل إذا علم أنني أسافر وحدي أحيانًا؟ سيكون هذا مصدر ضيق كبير لي. لكن لا بأس... يبدو أن جميع النساء يعيشن مثل هذه الحياة، وأن الثقة التي وضعها أهلي فيَّ كانت استثنائية. يجب أن أعتاد التنازل عن حريتي من أجل "لارا" ابنتي المقبلة.

ابتسمت له ابتسامة حاولت أن تبدو طبيعية، ثم قلت:

_ إذا كان على الخروج... أمره سهل.

ابتسم وقال:

_ خير خير... سلمى قالت لي إنك صحفية.

_ آه فعلًا، أنا محررة في قسم المرأة والمجتمع.

_ بصي... بالنسبة لعمل المرأة، أنا بفضل إن الست تكون متفرغة لبيتها وجوزها. لكن لو شغلك بيسعدك، ماقدرش أمنعك عنه. مع إن عمل الصحافة صعب شوية بالنسبة للست... ما فيش أحسن من إنها تبقى في مهنة حكومية عشان يبقى عندها وقت تعمل بيت وأسرة، أو تبقى طبيبة نسائية.

علقت معي الكلمة... لماذا طبيبة نسائية تحديدًا؟ فسألته:

_ اشمعنا يعني دكتورة؟

ضحك ضحكة سمجة وقال:

_ عشان تكشف على الستات طبعًا... أنا لسه أخويا متخانق مع مراته عشان عايزة تولد عند دكتور مشهور، وهو طبعًا رافض ده.

توقعت ذلك. أتعجب كثيرًا من هذه الفئة: ترفض عمل المرأة، لكن ترغب في وجود طبيبة نسائية لتوليد زوجاتهم، وتكون متاحة لهم في أي وقت لأن الطب رسالة. بينما لو كانت زوجته هي من تؤدي هذه الرسالة، لاتهمها بالتقصير في حق منزلها وزوجها.

تذكرت ابتسامة "لارا" الجميلة... وتنهدت قائلة في داخلي: "من أجلك يا ابنتي المستقبلية، سأتحمل تحكم هذا الحلوف، فأنا أحتاج كروموسوماته حتى تأتي إلى هذا العالم".

قلت لنفسي: أنا أدعم المرأة وأرفض مقولة أن الرجال يتفوقون على النساء في العمل، وسأعتبر ذلك تشجيعًا لدورها. لكن خطر في بالي سؤال مهم: منذ يومين كنت أعمل على تحقيق عن ختان الإناث... يجب أن أعرف رأيه في هذا الموضوع المحوري.

_ ممكن أسألك سؤال... أنا كنت شغالة من يومين على موضوع ختان الإناث، وحابة أعرف رأيك.

ظهرت تلك الابتسامة اللزجة مرة أخرى. يا الله... هل لو تزوجنا سترافقنا هذه الابتسامة طول الحياة؟ ثم قال:

_ طبعًا أنتِ صحفية بقى، أكيد هتقولي دي جريمة... وغسيل الدماغ اللي ملوا بيه عقولكوا.

لم أحتمل أن يكمل هذا الحمار حديثه... فقد تخيلت طفلتي "لارا" المستقبلية وهي تنزف بعد أن يُقطع جزء من جسدها، وهو من حقها.

سامحكِ الله يا سلمى... لم تجدي غير هذا المتخلف لأتزوجه؟

استأذنت منه، ثم تركته، وقلت لسلمى أن تقول لزوجها إن "ما فيش نصيب".

عُدتُ إلى منزلي يملؤني الحزن، أتحسّس بطني الفارغ بحثًا عن طفل غير موجود. كنتُ، من فرط تعلقي بفكرة الإنجاب، أشعر بدوار وغثيان وكأنني أحمل طفلًا في أحشائي. وضعتُ رأسي على وسادتي... لماذا رفضتُ هذا العريس؟ ربما كنا وجدنا طريقة للاتفاق. أطبقتُ جفنيّ، وانسابت دمعة على خدي، ثم ذهبتُ إلى النوم كمن يذهب إلى سجن لا خيار له في مغادرته.

بعد مرور شهر آخر، هاتفتني سلمى مرة أخرى لتخبرني عن عريس جديد. ملأني الحماس كالعادة، هندمت نفسي وذهبتُ للقائه. بدا أقل رونقًا من العريس السابق، لم تعجبني هيئته، لكني تغاضيتُ عن ذلك. تحدثتُ معه وديًا، ثم سألته إن كان يفضّل أن أعمل بعد الزواج. فجاء رده:

_ طبعًا... أنا أحب الست اللي تشتغل، اللي ليها طموح وكيان.

أعجبني رده، فاسترسلت:

_ أنا بشتغل صحفية، ووقت كتير بيضيع مني في البحث.

_ طالما بتعملي حاجة هتسعدك، أنا معاكي وهساعدك.

_ طب ومرتبي؟

_ أنا شايف إن الحياة مشاركة، إنتِ مش شايفة كده برضه؟

_ معاك حق.

_ يعني نتشارك في الشقة والجهاز والمصاريف والفرح... وكله.

صمتُّ قليلًا ثم قلت:

_ تمام.

_ وليَّ شوية تحفظات كده... محبش الزيارات الكتير، لا نروح لحد ولا يجيلنا، عشان البيت ده مكان خصوصية لينا إحنا بس.

_ تمام برضه.

_ آه، وحاجة كمان... ماما. أهم حاجة أمي. عشان أنا فسخت خطوبة قبل دي بسبب عدم رضا أمي.

لم أرتح في المقابلة الأولى، لكن عملًا بنصيحة سلمى، أعطيته فرصة ثانية... حتى تأكدت من شكوكي: إنه بخيل، وليس هذا فقط، بل غير مستقل عن والدته، وسيطرتها كانت سبب فسخ خطبته الأولى. حاولتُ تحمّله، لكني لم أستطع... لذا لم أوافق عليه.

****

أخبرتني سلمى أن أضعف قليلًا وأحاول أن أقلل من متطلباتي الشخصية، حيث رأت أن مواصفات شريك حياتي خيالية، قائلة:

_ يا بت، افهمي... الصنف كله كده، وإحنا بنختار أحسن الوحشين. وبعدين سامحيني، إنتِ مش بتعرفي تتعاملي مع الرجالة.

_ يعني إيه يتعمل وما عملتوش؟

_ الراجل عامل زي الطفل الصغير، وتقدري تاكلي بعقله حلاوة. يعني في حد يحب كلمة "حاضر" تقوليها عمال على بطال، وواحد يحب الأكل، يبقى تتعلمي تطبخي له أصناف وأشكال. في اللي يحب الجنس... دي بقى ما أقولكيش عليها.

_ والله... وطب وحقوقي أنا؟

_ هما الرجالة كده، اتربوا إنهم يرتاحوا، والست تعمل كل حاجة تريحهم.

_ أقولك على حاجة بس ما تزعليش.

_ قولي.

_ ده شغل عاهرات. كل عاهرة بتعرف "داخلة" الراجل اللي معاها وتتشكل على حسب مزاجه، بس الفرق إن العاهرة بتبقى عايزة عائد مادي، لكن هنا إنتِ عايزة عائد معنوي ومادي.

تركت سلمى... لم أحتمل أن أكمل الحديث معها، ثم فكرت: هل يمكن أن تكون سلمى على حق؟ هل يمكن أن يكون ما أقرأه من كتب قد زرع في رأسي أفكارًا لا يمكن أن تُترجم إلى واقع؟

حين وصلتُ منزلي، لم أستطع أن أجلس مع والدتي وأتناول العشاء كالعادة. ذهبتُ إلى غرفتي وبكيت... بكيت كما لم أبكِ من قبل. ثم سمعتُ صوت هاتفي، جاءني إشعار من تطبيق المواعدة. فتحته، فوجدت شخصًا يُدعى أيمن يراسلني. نظرتُ إلى صفحته على التطبيق، بدا لي شخصًا محترمًا، لكن كيف لي أن أعرف؟ إنه تطبيق مواعدة في النهاية. ومع ذلك... كنتُ في حالة يُرثى لها، وأحتاج إلى أن أتحدث إلى أحدهم. لا أعرف كيف، لكني راسلته أنا أيضًا.

****

بدأ الحديث مع أيمن ممتعًا إلى أقصى حد، وكنتُ أنا أيضًا سعيدة بوجود شخص في حياتي. شيئًا فشيئًا توطدت علاقتي به، وشعرتُ أنني وجدته أخيرًا. حينها تذكرت كلمة قالها هشام لي: "ستجدين الشخص المناسب في المكان الذي لا تتوقعين أن تجديه فيه"، وربما هذا ما حدث.

طلب أيمن أن يقابل والدتي، وبالفعل قابلها ونال إعجابها. وقبل تحديد موعد للخطوبة، صارحني أيمن بأنه مريض بالسكر، والمشكلة أن هذا المرض أفقده القدرة على الإنجاب.

أصبحتُ في حيرة من أمري؛ فرغبتي في الزواج كانت من أجل أن أنجب طفلًا، وبعدما وجدت الشريك المناسب، يتعين علي أن أتخلى عن حلم الأمومة. حذرتني سلمى قائلة:

"إن حدث الزواج ثم بعد عدة أعوام اكتشفتِ أنكما لا تتناسبان، وحدث الطلاق، ستكونين حينها قد ضحيتِ بقدرتك على الإنجاب من أجل الشخص الخطأ".

أرعبني حديث سلمى، وجعلني أُعيد النظر في الأمر كله.

مضت أربع سنوات الآن... فقدتُ رحمي، جزءًا هامًا من أنوثتي. لكن ما يهم هو أنني أحيا الآن بجانب زوجي وابني. فقد تزوجتُ أيمن، وكان الاختيار صعبًا وقاسيًا، لكني اخترت الطريق الصعب. لم تكن هناك ضمانات على أن زواجي به سينجح، مثل كل شيء في الحياة، ومع ذلك اخترته.

ثم قمنا أنا وهو بتبنّي طفل جميل من أحد دور الأيتام، شعرتُ حينها أن الله أخذ رحمي كي أجد أيمن وابني الحبيب يوسف.

يمكنني أن أصنّف هذا الأمر على أنه جيد أم سيء؟

انطلقتُ برفقة زوجي نحو منزلنا، أشرت إليه وقلت:

ـ انظر... منزلنا هناك.

ابتسم ابتسامة حزينة ثم قال:

ـ لم يعد منزلنا يا ليندا... منذ الآن فصاعدًا.

ـ كيف ذلك؟ ألا تتذكر كم تعبنا من أجل أن نشتري هذا المنزل في هذا الموقع؟ انظر... يوسف ورؤوف هناك!

ـ مَن هؤلاء الغرباء الذين في منزلنا؟

حاولتُ أنا وتوفيق الطيران نحو المنزل. وحين وصلنا، وجدنا رجلًا وامرأة يعيشان فيه.

قلتُ مذهولة:

ـ توفيق... هل يُعقل أن الأولاد قد باعوا المنزل؟

ـ يبدو ذلك يا ليندا... يبدو أنهم باعوه ثم اقتسموا ثمنه فيما بينهم.

ـ لكن... إنه منزل العائلة!

ـ أي عائلة يا ليندا؟ فقد مات الأب والأم وتفرّق الإخوة.

جاءتني رغبة شديدة في الذهاب إلى غرفة نومي، فانطلقتُ مسرعة، بينما كان توفيق يحاول اللحاق بي:

ـ ليندا! إلى أين تذهبين؟

ـ أود أن أعرف من سينام على سريري!

دخلتُ الغرفة، فوجدت صاحبة المنزل الجديدة قد غيّرت الأثاث... يا الله! ما هذا الذوق البشع؟ وكيف لها أن تغيّر ألوان طلاء الغرفة؟ ذوقها متدنٍّ للغاية. لو كنت ما زلت حيّة، لكنت قتلتها.

جاء زوجي وجذبني برفق:

ـ هيا يا ليندا... لم يعد هذا المنزل بيتنا.

ـ لا أستطيع أن أصدق هذا... لقد عشتُ في هذا المنزل أكثر من عشرين عامًا، والآن لم يعد ملكي!

ـ الأمور لا تُحسب هكذا يا ليندا... هيا، لدي مشوار.

ـ إلى أين؟

ـ أود أن أعرف ماذا حدث لسيارتنا.

ـ توفيق... لا تكن أحمق. السيارة دُمّرت في الحادث... هل نسيت؟

ـ لا، لم أنسَ... لكني أريد أن أعرف ماذا فعل الأولاد بمال بوليصة التأمين.

اكتشفتُ أن أولادنا اشترى كلٌّ منهم سيارة خاصة به من مبلغ التأمين، بالإضافة إلى ما كان معهم. وبينما نحن واقفان، رأيتُ توفيق يجري خلف شخص يحمل كتابًا.

صرختُ:

ـ ماذا تفعل؟

ـ إنه يحمل كتابي!

ـ تقصد أحد الكتب التي كتبتَها؟

ـ نعم... هيا بنا إلى دار النشر. أريد أن أعرف إن كانت كتبي ما زالت تُقرأ، وهل ما زلت أغيّر تفكير الناس بها.

ـ مهلاً، دار النشر بعيدة... ثم ما أهمية ذلك الآن؟ إن كانت كتبك تُغيّر تفكير الآخرين، فهذا لن يؤثر علينا، لقد تركنا هذا العالم، والآخرون لا يعنون لنا شيئًا... خصوصًا إن كنا لا نعرفهم.

ـ كيف تقولين هذا؟ بل ستؤثر... ستؤثر على ذكْرنا في هذه الحياة. أريد أن أعرف من من الكتّاب كتب عني، وماذا كُتب، وما الأثر الذي تركته.

ـ فهمت الآن... وأنا أيضًا أود معرفة إن كانت صديقاتي في النادي ما زلن يحيين ذكراي.

ـ إذن لدي فكرة... كلٌّ منّا يذهب ليعرف ماذا يفعل أحباؤه، ونلتقي آخر اليوم عند منزلنا... أو الذي كان منزلنا.

******

بالفعل، انطلق كلٌّ منا إلى وجهته، حتى جاء آخر المساء. وصلتُ قبل توفيق بقليل، ثم جاء هو شاحب الوجه حزينًا. سألته:

ـ ماذا هناك؟

ـ كم مرّ من الوقت على وفاتنا؟

ـ أنت تعلم أن هناك فرق توقيت بين عالمنا وعالمهم... أمس بالنسبة لنا يساوي عندهم سنوات، وربما أكثر.

ـ مبيعات كتبي جيدة.

ـ إذن... ما المشكلة؟

ـ لا أحد يتذكرني. المدير الذي جاء بعدي هدم كل ما بنيت، والموظفون منشغلون في حياتهم. كل هذا متوقع... لكن حتى إخوتي، لا أحد يذكرني إلا حين يتشاجرون على ما تركت من ميراث.

ـ نعم... أفهمك. فأنا مثلك. الجميع منشغل في حياته. صديقتي نادية، التي كنت أحل مشاكلها مع زوجها دائمًا، لا تتذكرني الآن وكأني لم أكن. وحتى ياسمين، التي لم تتوقف يومًا عن طلب المساعدة مني، لم تحضر جنازتي أصلًا!

ـ لا بأس يا ليندا. نحن نعرف أن هذه الحياة مليئة بالمشاغل. نحن أيضًا، حين كنا أحياء، لم نبكِ طوال الوقت على أحبائنا. ومن كان يفعل ذلك كنا نرسله إلى الطبيب النفسي.

ـ معك حق... يبدو أننا توفينا منذ زمن طويل، لذا لم يعد أحد يذكرنا. أتعلم بماذا أرغب الآن؟

ـ ماذا؟

ـ أرغب في ارتداء مجوهراتي. كانت لدي مجموعة مميزة، أتذكر تلك القلادة على شكل فراشة؟

ـ لقد أعطاها ابنك الكبير لزوجته ميسون.

ـ ماذا!! ميسون التي كنت أعارض زواجه منها؟ لو رأيتها الآن، لقضمت رقبتها التي يلتف حولها عقدي المفضل!

ـ لا وقت لهذا الآن... فسيأتي مقدّر الأرواح ليأخذنا معه.

ـ نعم... لكن أين هو؟

ـ أغمضي عينيك وافتحيهما مثلي، وستجدينه هنا.

(ظهور مقدّر الأرواح)

ـ كيف حالكِ سيدتي ليندا، وكيف حالك يا سيد توفيق؟ أتمنى أن تكونا قد استمتعتما برحلتكما الثانية إلى الأرض، كما طلبتما.

قال توفيق:

ـ الحقيقة... ليس كثيرًا.

قال مقدّر الأرواح:

ـ هذا ما يحدث دائمًا. لقد حذرتكما من ذلك. والآن، يؤسفني أن أبلغكما خبرًا سيئًا.

قلت أنا وتوفيق بلهفة:

ـ ماذا؟

ـ لقد تأخرتم كثيرًا في رحلتكم إلى الأرض، لذا لا يمكنني أخذكم معي.

ـ إذاً... أين سنذهب؟ ـ قال توفيق.

ـ إلى أي مكان تريدانه... على الأرض.

ـ هل سنعيش مرة أخرى؟ ـ قلتُ متحمسة.

ـ بالطبع لا. سترجعان إلى الأرض في هيئة أشباح حتى يأتي يوم القيامة.

ذهلنا أنا وتوفيق، وحاولنا إقناعه ألا يتركنا كأشباح، لكنه قال:

ـ أنتم تظنون أن بإمكانكم جعلي أغيّر قراري ببعض الكلام... مثل هذه الأمور تحدث عندكم في الأرض فقط. القرار صدر، أنتم الآن أشباح. وهذا ليس ظلمًا، فالأرواح التي تظل متعلقة بما كان لها على الأرض تتحول أشباحًا. أنتم ما زلتم تحبون الأرض... والآن، أغمضا أعينكما، فأنا منصرف.

(رحيل مقدّر الأرواح)

سألتُ زوجي:

ـ ماذا سنفعل الآن؟ وإلى أين سنذهب؟

قال بحزن:

ـ نحن لا نعرف سوى منزل واحد... منزل العائلة. سنذهب إليه.

ـ لكن هذا المنزل به سكان آخرون، وأصبح ملكهم.

ـ ألم نصبح الآن أشباحًا؟ ألم تسمعي عن أناسٍ غادروا منازلهم لأن بها أشباح؟

أعجبتني فكرة توفيق. بالفعل، ذهبنا إلى منزلنا القديم. نمتُ على سريري في غرفتي... لكن تلك السيدة الحمقاء التي اشترت المنزل لها ذوق سيء في الديكور. كنت أفعل خيرًا لها وأغيّره كل صباح بما يناسب، ثم أراقبها وهي تفزع حين ترى الأثاث تغيّر مكانه.

أما توفيق، فكان يغيّر محطة التلفاز كلما وضع الرجل الذي بلا ذوق شيئًا لا يعجبنا. وكم ضحكتُ حين كان زوجي يقرأ الجريدة فتقف في الهواء، والرجل يحدق فيها مذهولًا!

وهكذا، بقينا نزعجهم حتى رحلوا... ثم جاء سكان جدد، وفعلنا معهم الشيء نفسه. وسنظل هكذا... حتى نتحول من أشباح إلى أرواح في يوم القيامة.

لستُ فتاة عادية... أو على الأقل لم أعد كذلك.

حتى العام الماضي كنت أعيش حياة عادية، لكن منذ رحيل أبي تغيّر كل شيء. رحل أبي الذي أحب... رحل ولن أراه يبتسم مرة أخرى. لكن أكثر ما يؤلمني ليس فقده، بل طريقة رحيله... انتحاره.

في عزاء والدي، سمعت همسات تقول إنه منتحر، وإن مصيره الجحيم الأبدي. انسحبت إلى غرفتي، دفنت وجهي في وسادتي، وبكيت حتى شعرت أن قلبي يتمزق. عقلي يرفض تصديق أن أبي سيُعذّب للأبد.

في اليوم التالي، سألت أمي:

– هل سيتعذب أبي للأبد؟

نظرت إلي بريبة، ثم قالت:

– ولماذا تقولين ذلك؟

– سمعت أن مَن ينتحر يُعذّب للأبد...

صمتت أمي لحظة، ثم قالت بنبرة قاطعة:

– اتركي هذه الأفكار من رأسك.

لكن الصمت لم يُشبع فضولي. لجأت إلى الإنترنت أبحث عن إجابة، فوجدت طبيباً نفسياً يشرح أن الطب الشرعي يُفرّق بين مَن مات تحت تأثير الاكتئاب وأفكار مرضية، وبين مَن اتخذ القرار وهو بكامل وعيه.

ركضت إلى أمي وسألتها:

– هل كان أبي مريض اكتئاب؟

زفرت بضيق وقالت:

– لا أعلم... لم يذهب إلى طبيب نفسي، لكنه كان حزيناً ومهموماً قبل موته... والآن، أرجوك، فكري في حياتك.

انسحبت من أمامها، وداخلي شعور بالوحدة. صرت أحلم ليلاً أن والدي يُعذّب، وأستيقظ بقلب منقبض. بدأت أصلي وأفكر: ماذا لو أصبحت قديسة؟ ربما حينها يسمع الله صلواتي ويرحم أبي.

التزمت بالصلاة والصيام، ثم خطرت لي فكرة أخرى: أن أجمع أكبر عدد من الناس ليصلوا له. أخذت مالاً من محفظة أمي، ونزلت إلى الشارع، وكلما رأيت شحاذاً أعطيته نقوداً وأطلب منه الدعاء لأبي.

لكن حين عدت إلى البيت وحكيت ما فعلت، ثارت أمي، وحين اكتشفت أن المبلغ كان ألف جنيه، قررت معاقبتي. بكيت كثيراً، وأدركت أن خطتي فشلت.

فكرت بخطة ثانية: سأقتطع من مصروفي شهرياً وأتبرع به لمريض في مستشفى خيري، مثل مستشفى سرطان الأطفال. لكن حين رأيت تكاليف العلاج على موقعهم، اكتشفت أن الأمر يحتاج قرناً من الزمان لأجمع المبلغ المطلوب.

عندها لم أجد بداً من العودة إلى الخطة الأولى: أن أصبح قديسة... فربما في يوم ما، يسمع الله صلاتي... ويغفر لأبي.

****

في السنة التالية، لا أعرف إن كنت قد قدرت أن أصبح قديسة أم لا، فأمي لا ترضى عن معظم تصرفاتي، وكذلك أكذب أنا أحياناً عليها كي أخرج مع صديقاتي دون علمها، كما أنني أتنمّر قليلاً أنا وصديقاتي في الصف المدرسي على معلماتنا، وأقصّر أحياناً في صلاتي، لا يبدو أنني مشروع قديسة ناجحة، لذا قررت أن أقرأ أكثر في هذا الموضوع.

وفي أحد الأيام وأنا أعبث على الإنترنت، وجدت فيديو لأحد الأشخاص الملحدين، يقول إنه لا يؤمن بالله الذي يُرسل أناساً إلى الجحيم لأنهم يخالفونه في الفكر، وبدأت أتابع هذا الشخص وغيره كثيرين، ثم شعرت بالحنق تجاه الله: لماذا يُرسل والدي الحنون الطيب إلى العذاب الأبدي لأنه يأس من الحياة؟ تركت صلواتي المعتادة وابتعدت عن الله. لاحظت أمي ذلك وبدأت تسألني، لكنني كالعادة كنت أتهرب منها.

وفي يوم، عدت من مدرستي حزينة مكروبة، وجدت أمي في المنزل وأمامها صورة والدي، فاتجهت نحوها لأكسرها.

صاحت أمي بي:

– ماذا تفعلين؟ هل جننتِ؟

قلت:

– لماذا نحتفظ بصورة شخص نعلم أنه الآن يُعذب... حتى نتذكر عذابه الأبدي؟

اقتربت أمي نحوي، وبصوت حنون قالت:

– حبيبتي، لا تيأسي من رحمة الله.

– أين رحمة الله وأنا أعلم كل دقيقة وكل ساعة أن أبي يتعذب الآن، وأنه سيُعذب إلى الأبد؟

– صغيرتي... نحن لا نعلم شيئاً.

بكت والدتي وبكيت أنا أيضاً. في المساء بدأت أصلي، ثم بدأت أُقترح على الله بعض المقترحات: لماذا تُعذب والدي إلى الأبد؟ يمكن أن تعذبه إلى حين ثم تنقذه... أو يمكن أن تعذبه إلى حين ثم تُهلكه وكأنه لم يكن. كنت أصلي كل يوم من أجل أن يُغير الله معاملته لأبي، أو أن يخفف عنه آلامه حين أذكره في صلاتي.

وحين شاركت إحدى صديقاتي هذه الصلوات، قالت لي إنني جُننت، وأن صلواتي لا معنى لها. حينها عدت إلى المنزل مكروبة، وامتنعت عن تناول الطعام لأيام.
أخذتني والدتي وقتها إلى الأطباء حتى تنقذني، ربما لأنها خافت أن أفعل بنفسي ما فعل أبي.

وحين كنا عند الطبيب، كان أول سؤال له: هل أحد في العائلة يعاني من الأمراض النفسية؟ استمريت مع هذا الطبيب مدة ومع أدويتي النفسية، ثم تركته إلى طبيب آخر. ومثلما كانت حالتي النفسية تتغير، كانت أفكاري تتغير: ففي الصباح أُلحد بالله، وفي المساء أصلي له. لم أكن أعرف من أنا... أو بماذا أؤمن.

****

انتهيت من قراءة فصول مذكّراتي حين كنت في الثانية عشرة. الآن، وقد مرت الأعوام، وبعد أن قابلت أطباء نفسيين كُثُر، ساعدني هذا الحوار:

– هل الله صالح ورحيم؟

أجابت: **نعم.**

– هل الله عادل ولا يُشمخ عليه؟

أجابت**: نعم.**

إذاً، هل أكون أنا أرحم من الله؟ حاشا.

هل أكون أنا أعدل من الله؟ حاشا.

إذاً فلماذا الخوف؟ وإن كان قلبي الصغير به رحمة، فكيف تكون حينئذ رحمة الله الواسعة؟ يجب أن أثق بالله وبرحمته وعدله، فهو لن يظلم أبي، ولن يكون أرحم عليه مني. وتركت الأمر لله.

الحكاية العشرون: محكمة الحب

الآن نحن داخل محكمة الحب، تفضّل السادة المستشارون بالحضور، ثم حضر سيادة القاضي. يوجد الكثير من القضايا اليوم.

جلس القاضي، والسادة المستشارون بجانبيه، وقام حاجب المحكمة بالنداء على القضية الأولى. حضر المدّعي والمدّعى عليها.

المدّعي يدعى سامي، وقدّم دعوى ضد زوجته ياسمين، يتّهمها فيها بأنها استنفدت جميع رصيد الحب الذي يكنّه لها في قلبه؛ فقد أصبحت لا تبالي به، بالإضافة إلى عصبيتها واتهاماتها له، بل وصل الأمر إلى شكّها فيه. وهو يطالب إمّا بالتصالح وعودة العلاقات وإعادة شحن رصيد حبها، أو الخروج من قلبه وانتهاء العلاقة.

تفضّل السيد سامي المدّعي بالحضور، فسأله القاضي:

– ما هي شكواك؟

– سيدي القاضي، إنني حضرت اليوم لأتّهم زوجتي بأن رصيد حبها قد أوشك على النفاد، ويجب أن تقوم بإعادة شحنه ثانيةً، وإلا سأضطر آسفاً لإخراجها من قلبي.

قاطعته ياسمين قائلة:

– سجّل ذلك يا سيادة القاضي، إنه لا يحبني، إنه يرغب في إخراجي من قلبه.

القاضي (بحدة):

– سيدة ياسمين، مَن سمح لكِ بالحديث؟ لا يجب أن تقاطعي الطرف الآخر.

سامي: **هل رأيت، سيدي القاضي، أنها كذلك طيلة الوقت؟ اتهامات لي بعدم الحب، ثم بعدم الإخلاص، ثم اختلاق حجج للهروب منها. لا أدري لماذا تفعل ذلك، لقد استنفدت حبي لها.**

ياسمين (باكية): **هل لي أن أتحدث الآن؟**

القاضي: **تفضّلي.**

ياسمين: **سأعترف بكل شيء، سيدي القاضي. زوجي عنده حق في شكواه عليّ. أعلم أنني امرأة سيئة الطبع، صعبة المعشر، لذا سيتركني الجميع... حتى زوجي سيهجرني.**

ينظر سامي إلى ياسمين بشفقة ويقول:

– لماذا ترين نفسك بهذه الصورة؟ أنتِ يا زوجتي العزيزة امرأة فاضلة، تحبّينني بحق، وكذلك تحبّين والديّ. لماذا أهجرك؟ لكن فجأة تحتد طباعك وتتهمينني باتهامات بشعة، ولم يعد لي طاقة لذلك.

ياسمين: **أعترف أنني أفعل هذا كله، لكنني خائفة... أخاف أن تهجرني، أن تتركني مثلما فعل الجميع قبلك. أود أن تكرهني الآن، لأني لا أستطيع أن أحيا في انتظار هجرك لي.**

سامي: **لكنني أحببتك حقاً.**

ياسمين: **وأنا خائفة... أحياناً يخبرني عقلي أن أتركك قبل أن تتركني، أن أعيش بمفردي قبل أن أُرفَض مرة أخرى.**

القاضي: **لا وقت للمزيد من الحديث، هناك قضايا أخرى في الانتظار. حكمت المحكمة على هذا الحب بإعطائه فرصة أخيرة حتى تتمكّن السيدة ياسمين من الشفاء من خوفها، وإن لم تستطع ذلك، فيكون من حق المدّعي سامي إخراجها من قلبه.**

القضية الثانية تتقدّم

دخل المدّعي السيد أكرم الذي رفع قضية تعويض لإهداره الكثير من المشاعر على زوجته دون أن تبادله هي نفس المشاعر. دخل المدّعي وعقبته زوجته السيدة رانيا.

تحدث المدّعي السيد أكرم:

– إنني أطالب بتعويض من السيدة رانيا زوجتي. لقد أنفقت عليها الكثير من المشاعر، لكنها لم تبادلني بالمثل. فمنذ أن تزوجنا، لم أشعر أنها تحبني كما أنا. ترغب دائماً في تغييري، تغيير طريقة كلامي، ضحكي، أصدقائي، حتى طريقة تناولي للطعام.

نظرت له رانيا بغضب ثم أشارت للقاضي:

– هل لي أن أتحدث؟

أشار لها القاضي بالحديث:

– زوجي هذا الماثل أمام سيادتكم ويطالبني بتعويض، والحق أنني أنا مَن يستحق التعويض. ادعاؤه بمحاولتي تغييره الدائم صحيح، لكن هل تعلم يا سيدي القاضي ما أعيشه معه كل يوم؟ إنه يأكل بطريقة مقززة، تصدر عنه أصوات مختلفة طوال

الوقت، وروائح كريهة. هل تعرف، سيدي القاضي، أنه حتى لا يسحب السيفون خلفه؟

ضحك جميع الحضور، القاضي في حزم:

– لا داعي لذكر هذه التفاصيل، سيدة رانيا.

ثم التفت إلى أكرم وقال:

– سيد أكرم، بماذا ترد على كلام السيدة رانيا؟

قال أكرم:

– لقد رأيت بنفسك، سيدي القاضي، إن رانيا زوجتي تفعل ما تفعله دائماً، تحط من شأني أمام الآخرين، تُشعرني بالتقزز من نفسي. هل لك أن تتخيل أن تحيا مع إنسان يجعلك تشعر دائماً أنك كائن مقزز وكريه؟ لماذا تزوجتني إذاً؟ هل هذا ذنبي لأنني أحببتها؟

القاضي لرانيا:

– هلا تفضلتِ لإجابة سؤاله؟

نظرت رانيا إلى أكرم وقالت:

– نعم، تزوجتك... إنها غلطتي الكبرى. بعدما تزوجنا شعرت بالفارق الكبير بيننا، حاولت أن أطور من شخصيتك، لكنك كنت دائماً تقاومني بشدة. كنت في داخلي أشعر أنني أستحق أفضل من هذا، لكن الحظ يلعن هذا الحظ، ولم أجد غيرك في محيطي لأتزوجه. كنت أفضل السيئين فقط، لا غير.

أكرم باندفاع:

– هل سمعت، سيدي القاضي؟ إنها تعترف... أنها لا تحبني!

رانيا بغضب وانفعال:

– نعم... لا أحبك، أكرهك، أكره رائحتك وصوتك وطريقتك، لكني تزوجتك لأنك أحببتني، ورصيد حبك لم يعد يكفي كي أعيش معك.

القاضي بحدة:

– كفى، أنتم داخل محكمة. سيد أكرم، القضية منتهية. إنها خاسرة، خاسرة من قبل أن تبدأ. لقد سكبت مشاعرك في الشخص الخطأ، ومن الواضح أنه بدا لك أنها لا تحبك، فلماذا أكملت؟ لقد كان هناك اتفاق غير معلن بينكما أن حبكما يسير في اتجاه واحد منك لها. والآن لماذا تطلب تعويض؟ القانون لا يحمي المغفلين، انتهى..

القضية الثالثة

المدعون: فتاة تبلغ من العمر واحد وعشرين عاماً تدعى سارة، وأخيها آدم في التاسعة عشر، ضد والدتهما في قضية حب مسموم.

دخلت الأم إلى ساحة المحكمة وهي منكسرة، ثم نظرت إلى ولديها بغضب وقالت للقاضي:

– اسمح لي، سيدي القاضي، أن أعرف من بالتحديد رفع الدعوى، آدم أم سارة؟

بدا الولدان خائفين من والدتهما، فقال القاضي:

– كلاهما.

نظرت الأم مرة ثانية إلى ولديها وقالت:

– من منكما صاحب هذه الفكرة؟ من منكما أقنع الآخر أن تضعا أمكما في هذا الموقف؟ يا خسارة عمري وشبابي الذي أضاعتهما في تربيتكما.

نظر الولدان إلى الأرض، ثم قالت سارة بصوت مرتجف:

– أنا، ماما، صاحبة الفكرة.

نظرت لها الأم بازدراء وقالت:

– كنت أظن أنك كفتاة ستشعرين بأمك.

قالت سارة:

– لهذا السبب تحديداً، ماما... أنا صاحبة فكرة إحضارك إلى محكمة الحب.

تدخل القاضي قائلاً:

– على المدعين توضيح شكوتهما.

تردد الولدان في اختيار من يتكلم، حتى استقر الأمر على آدم:

– هلا سيدي القاضي، أعرفك بنفسي، شاب في التاسعة عشر من عمري، ابن أرملة تعس. ما ذنبي أن أصبح ابن أرملة؟ حُرمت من كل متع الحياة خشية غضب أمي. جميع أصدقائي لهم أمهات محبات ودافقات، لكن ابن الأرملة له أم نصف رجل، حضنها خشن، مسيطرة. إنها ترى أنني مشروع عمرها الأكبر. منعتني من السفر، وكان حلمي السفر، لأنها تعتبر أنها امتلكتني.

نظرت الأم بعين دامعة إلى ولدها وصمتت، ثم قالت سارة:

– أخي محظوظ أكثر مني، فهو ولد وقد اعتبرته أمي عوضها، لذا طبيعي أن ترفض أن تتركه. أما أنا، الفتاة، فلم أنل أي مودة منها، كانت جافة، ترى في كوني فتاة تهديداً في حد ذاته. إذا فعلت أي تصرف يُحسب عليّ، حتى كرهت حياتي وكرهت الناس.

مسحت الأم دمعتها، وبعد أن أذن القاضي لها بالتحدث قالت:

– لو كنت أعلم أن أولادي سيقدّمونني إلى محكمة الحب بعد أن أفنيت عمري من أجلهم، لكنت تزوجت وعشت حياتي كما يحلو لي. أعترف أنني كنت قاسية بعض الشيء، لكن كان هذا لصالحهم، وكلام الناس لن يتركنا إن أخطأ أحدهم، خاصة الفتاة. أما ابني، فهو ابني، أقل تقدير مما فعلت من أجله، ألا يتركني وحيدة.

قالت سارة:

– ريتك تزوجتِ، ماما... هذه أمنيتك السرية.

صاحت الأم قائلة:

– سارة، اصمتي... إنك تهنيني.

قالت سارة:

– لست أهينك، ماما، لكني قلت لك... أنا الفتاة، لذا سأشعر بك. سيدي القاضي، سأقول شيئاً لم أتفوه به من قبل، والدتي كانت تغار مني، لم أكن أفهم ذلك لكني كنت أشعر به. كانت تغار كلما كنت سعيدة، كلما رأت أنني قد أحب وأتزوج، وكلما كنت صغيرة وجميلة.

صاحت الأم:

– سارة، هل جننتِ؟

أحضر القاضي أحد الحبوب التي تُخرج ما في اللاوعي وأعطاها للأم، فأخذته على مضض، ثم قالت:

– نعم، كنت أشعر بالغيرة نحو أولادي، خاصة سارة. لقد تزوجت صغيرة في السادسة عشر، أنجبت أولادي، وتوفى زوجي وأنا في سن سارة. ترملت، شعرت بالألم... كنت فتاة صغيرة، حُملت مسؤولية فوق طاقتي. حُرمت الحضن الدافئ، حُرمت السند، حتى الاهتمام بجمالي. لا تلوموني، بل هذا المجتمع الذي يعيب على الأم إن تزوجت ثانية. كنت أخاف وارتعد إن أخطأ أحد أولادي، خاصة الفتاة، من أن يُقال إن تربيتهم سيئة. في داخلي كنت أكرههم أحياناً، لأنهم حمل ثقيل على أكتافي. نعم، اعترف أنني كنت عصبية جداً معهم، لكن عصبيتي كانت بقدر خوفي.

بدأت الأم تبكي، لكن قد صدر حكم القاضي بأن نموذج الحب الذي قدمته الأم مشوب وغير صالح، فقد أفسد خوفها حبها، ويحق للأولاد أن يشعروا ناحيتها بالغضب.

القضية الرابعة

دعوى استرداد قلب، رفعتها السيدة مريم على السيد حاتم، خطيبها السابق.

دخلت مريم إلى قاعة المحكمة ولحقها حاتم.

قالت مريم:

– لقد أتيت إلى هنا لأعترف بأني أخطأت في حق خطيبي السابق حاتم وأرغب في استعادة قلبه مرة ثانية.

نظر المدعى عليه حاتم وانتظر حتى يسمح له القاضي بالحديث، فقال:

– سيدي القاضي، لقد انتهيت من حب مريم نهائياً، ولكن مريم لا تفهم ذلك.

صرخت مريم في المحكمة وقالت لحاتم:

– لا، لا، أنت لا زلت تحبني، لكنك غاضب مني، أنا لن أضايقك مرة أخرى.

وفي حركة مباغتة ركعت مريم أسفل أرجل حاتم ثم قبلت يديه. صدرت همهمة عن جميع الحضور، أسكتها القاضي ثم أمر مريم بالنهوض.

فقال حاتم:

– أرجو من سيادة المحكمة أن تمنع هذا الابتزاز العاطفي.

تقبلت المحكمة طلبه، ثم أصدرت حكمها بخسارة قضية استرداد قلب وحوّلت القاضي مريم إلى هيئة النُظار لأنها بحاجة إلى رعاية طبية. ذهبت مريم معهم وهي تبكي.

القضية الخامسة

المدعي هم جماعة، أم المدعى عليه وأصدقاؤه وأقاربه، إذ اعتبروا أن المدعى عليه، يوسف، البالغ من العمر سبعة عشر عاماً، قد قصر في حبهم.

أحضر المدعى عليه يوسف وقال:

– الأمر ليس بهذا السوء، سيدي قاضي الحب. أنا كل ما فعلته هو أنني وجدت الحياة مع الآخرين شاقة ومتعبة، فوالداي لا يفهماني. أما عن ساعات وجودي معهم فهي تعيسة وكئيبة، لذا كنت أتهرب منهم وأفضل الجلوس في غرفتي حتى لا نتشاجر. أما أصدقائي، فكثيراً ما شعرت بالخذلان منهم، لذا أبعدتهم عني. أما عن قلبي، فقد حفظته، إنني لا أزال أحفظ مشاعري. أبكي مع بطل مسلسلي المفضل، وأفرح من أجله، وأتحمس عندما يحقق فريقي الرياضي الفوز، وأغضب إن خسر. لا أدري لماذا يقولون إنني بلا قلب، لدي قلب بالطبع، لكن مشكلته أنه لا يتفاعل في الواقع. ربما أصبحت أحتاج موسيقى تصويرية كي أتأثر، ربما أحتاج كاميرات تركز على ملامح الوجه مثل المشاهد المؤثرة في المسلسلات. لا أعرف، أهذا يعني أنني فقدت قلبي؟ إذن فليكن.

نظر قاضي الحب بأسف وقال ليوسف:

– يا بني، ماذا فعلت بنفسك؟ إن قلبك في طريقة لأن يتحجر. المشاعر التي تنتجها طبيعية لأنها الطريقة الوحيدة التي تعرفها لإنتاج المشاعر، لكنك لا تعرف كيف تتفاعل في الواقع. استبدلت كل ما هو حقيقي بكل ما هو زائف، سامحني يا بني، لقد خسرت الحب الحقيقي.

القضية الأخيرة

جاءت المدعية، السيدة نور، وقالت أنها ترفع قضية على الحب نفسه.

صدرت همهمة وجلبة في قاعة المحكمة، وسألها قاضي الحب:

– ما هي مشكلتك، يا سيدة نور، مع الحب؟

أجابت نور:

– لقد فاتني الحب، يا سيدي القاضي.

قال القاضي:

– كيف ذلك؟ لكل إنسان نصيب من الحب.

قالت نور:

– سيدي القاضي، أنا هنا كي أرفع قضية على الحب ذاته، لأنني اكتشفت أن الحب كي يعيش يجب أن يعيش على الكذب والخداع، وأنني امرأة صريحة، لذا لم يدُم لي حباً. أنا أحتقر الحب.

تشاور القاضي مع المستشارين وقال:

– هذه أول قضية تأتي موجهة ضد الحب ذاته، لكن القوانين لدينا لا تقول إن الحب كي يدوم يجب أن يكذب. الحب الحقيقي يقوم على الصدق.

قالت نور:

– نعم، سيدي، الحب الحقيقي يقوم على الصدق، لكن بنظرة إلى الواقع ستجد أن جميع العلاقات بين البشر تقوم على الخديعة والكذب. لا أستطيع أن أخبر صديقتي المقربة أن سلوكها السيء هو ما يبعد الناس عنها، لا أستطيع أن أخبر زوجي أنني لا أحب بعض أفراد عائلته، لا أستطيع إخبار ابنتي أن وزنها قد زاد، ولا أستطيع إخبار ابني أن رسمته سيئة، وبهذا تكون العلاقات سلسلة من الأكاذيب، وإلا خسرت حب الناس لي.

بدا القاضي متحيرًا، تحاور مرة أخرى مع مستشاريه، وقال:

– القوانين لدينا واضحة، الحب والصدق مجتمعان لا يفترقا. حين أحبك، لا أستطيع أن أخدعك، وحين تحبني، لا يجب أن تكذب عليّ. لكن كل هذا دون الصراحة الكاملة الجارحة. إن الصدق مثل الدواء في العلاقات، يجب أن يُؤخذ بجرعات محددة وقليلة، إذا أخذ كله مرة واحدة قد يموت المريض. هذا الأمر نفسه

مع الصدق: لا يؤخذ كله وإلا تحول إلى وقاحة. فهو مثل دواء نأخذ جرعة قليلة منه مع راحة تامة للمريض.

وأخيراً، قال القاضي:

– سأحوّلك إلى مستشفى الأمراض العاطفية لتتعلمي ما هي جرعة الصدق المناسبة.

ابتسم القاضي، وضم إليه المستشارين.

– لقد انتهت قضايا اليوم، والتئم هذا القلب الكبير الذي على باب محكمة الحب، في انتظار المزيد من القضايا.